



شخصيات خالدة في الإسلام

للأستاذ عبد المقصود حبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون

يسر
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
أن يقدم للعالم الإسلامي

المصحف المجود

١٢٠ اسطوانة

لأول مرة يتم تسجيل كامل للقرآن الكريم مجودًا بأصوات كبار القراء

الشيخ مصطفى إسماعيل	الشيخ عبد الباسط عبد الصمد	الشيخ محمود خليل الحصري	الشيخ محمود علي البنا

مع كل اسطوانة غلاف فاخر

سعر البيع للاسطوانة الواحدة ٦٤ قرشا

مراكز البيع:
القاهرة: مخازن القرآن الكريم ١٦ شارع الجمهورية الدور الثالث
الاسكندرية: فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٤٤ شارع سعد زغلول الدور الرابع

1973

الثمن ٥ قروش

دراسات فى الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

شخصيات خالدة فى الإسلام

للأستاذ عبد المقصود حبيب

العدد ١٤٥
السنة الثالثة عشرة
١٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٩٣ هـ
١٨ من مايو سنة ١٩٧٣ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة



مقدمة

هـذا كتـاب جديد ـ بتوفيق من الله ـ أقـدمه للقارىء العـربى ••• وقد يتبادر الى الذهن من قراءة اسـمه لأول وهـلة أنه مجموعة قصـص قصـيرة ••• أو رواية ••

لكنـه ليس كذلك •••

فقـد اخترت هـذا الاسم ليعبر عمـا فى الكتـاب من سيرة عطرة للشخصيات الخالدة الذكر •• لأعمالهـا العظيمة أو بطولاتهـا المجيدة أو مشاعرهـا الطاهرة التى جعلت من حياتهم عطرا خالدا لا يفنى بمرور الزمن ••• ولا يذهب ريحه الطيب بتوالى الأيام •• انمـا هو عطر خالد باق •• نستروحه فى كل حين فنجـد أنه هو هو ••• العطر الفواح الذى تهدأ به النفس وينشرح له الصدر ونستقبل به الحياة •• ـ فى كدنا وجهـادنا ـ أحسن استقبال •••

اذن هو كتـاب عن شخصيات •• عظيمة وفـذة •••

كمـا قلت •• نستروح عبيرهم •• عنـدما يعز أمامنـا المثل ••• ويحتـاج اليه ضوءا هاديا ••• ونموذجـا رائعـا نسترشد به ونتوخاه •••

نأخذ العبرة من سيرتهم العطرة لنستضىء بهـا فى حياتنا وننتفع بتجاربهم فى أمورنا الدنيوية والأخروية فقد هلك خزان المـال وهم أحياء ، والعظماء باقون ما بقى الدهر . أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ...

ويقول الله سبحانه وتعالى وهو أصـدق القائلين ...

« فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » ..

أما منهجى فى هذه السير ...

فهو أنى لم آخـذها سردا تاريخيا ... فما أحفـل الكتب بتفاصيل هذا التـاريخ النـاصع .. ولكنى توخيت البنـاء القصصى نوعـا ما ليسلس القيـاد للقـارىء ويظل هنـاك رباط قوى بين الكتـاب وقـارئه .. لأن البنـاء القصصى فى السرد التاريخى هو أقرب ألوان الكتـبة الى نفس العـامة والخـاصة ...

بالاضـافة الى ذلك ... ارتكزت على جوانب البطولة فى الشخصية فكتبت عنهـا لأن هذه الجوانب هى التى شدتنى .. وهى التى أرقت فكرى حتى أجلوهـا للقارىء العربى ... ليجـد فيها العطر الذى وجدته ... ويستروحه كما استروحته واستروحه كتـاب سابقون ....

وعلى الله فليتوكل المتوكلون ...

المؤلف

أعظم النساء خديجة
رضى الله عنها

ماذا يقول كاتب فى واحدة هى أم للمؤمنين والمؤمنـات .. وهى أول من أسلم من النساء .. وهى أول من احتضن الدعوة وراعيها .. وبذلت فى سبيلهما من مالهـا ونفسها .. كرمهـا الله .. وكرمها رسول الله .. وأقسم أنها لا بديل لها ولا يعدلها عنـده أحـد .. « والله ما أبدلنى الله خيرا منهـا » .

ماذا يقول هـذا الكاتب أو ذاك فى هذه السيدة العظيمة بعد تكريم الله ورسـوله لهـا .. انه مهما بلغ بفكره وقلمه فلن يستطيع أن يشتمل على كل الروعة فى تلك السيرة العطرة كمـا لن يستطيع أن يحيط بعظمة هـذه الشخصية الفذة . ولكن حسبه من كتـابته شيئين :ـ

أولهمـا : أنه يرضى نفسـه ومشـاعره بالاقتراب من ذلك النور البـاهر يستجليه قـدر ما يستطيع ويملأ منه قلبـه رضاء واجلالا . وأمـا ثانيهما فكما يقـول الاسـتاذ حسن كامل الملطاوى « ليس المقصود بالكتابة فى سير عظماء الاسلام وأعلامه أننا نسرد وقائع التاريخ المتصـلة بهم فحسب بل المقصود أن نأخذ العبرة من سيرهم لنستضىء بهـا فى حياتنـا وننتفع بتجاربهم فى أمورنا الدنيوية والأخروية .. فقد هلك

خزان المال وهم أحياء والعظماء باقون ما بقى الدهر .. أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة .. وقد بين الله سبحانه حكمة القصص فقال لأصفى أصفيائه صلى الله عليه وسلم « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » كما قال تعالى « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» وقال أيضا « فأقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

وان كنا معشر المسلمين نساء ورجالا فى حاجة دائمة لاستجلاء العبر واستنهاض الأمثال من سير عظماء الشخصيات الاسلامية والتأسى بما كانوا يقدمون للدنيا من خير وفضل .. فما أحوجنا الآن الى مثل سيرة سيدة هى أعظم نساء العالمين .. ليست لأنها فقط كانت زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم .. ولكن أيضا لأنها ضربت أروع الأمثلة فى مساندة الزوجة لزوجها فى دعوته عندما أكد لها قلبها الملهم أنها دعوة الحق من عند الله وقفت بجانبه تقويه وتزكيه وتبذل من راحتها وطمأنينتها ونفسها لكى يسير الداعى بدعوته كى تعم الدنيا وتملؤها بالنور والسلام وليس هذا أيضا فحسب .. ولكن لأنها أنجبت ذرية صالحة تضىء للمسلمين أركان الأرض الى اليوم والى يوم الدين .

كانت حياتها منذ يومها الأول حياة النبل والقدرة والترفع حتى لقبتها قريش من قبل الاسلام بالطاهرة لما كانت عليه من خلق عظيم وفضل سابغ ومجد عريق وسمعة يحفها الطيب فى كل مكان وفى كل مجلس ..

خديجة بنت خويلد .. ولدت لأبوين كريمين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر بل وكان نسبا عريقا فى النبل والسيادة .. وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة واليسار الظاهر فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام .. كما كان لهذه الأسرة نزعة مفطورة بالروحية والتدين .. نزع أفرادها الى العزلة والاعتكاف بحثا عن دين أقوم مما عليه القوم مثل ابن عمها ورقة بن نوفل الذى ما فعل ذلك للانتفاع المادى أو الكسب الشخصى وانما كان عكوفه على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه بالشك فى عبادة الأوثان وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل مما يمارسها قومه .

درجت خديجة بنت خويلد فى هذه الأسرة العظيمة من الطفولة الى الشباب . حتى تزوجت « أبا هالة بن زرارة التميمى » الذى كان من علية الناس فى مكة وقد مات فى الجاهلية بعد أن قضت معه أعواما قليلة .. وقد ولدت له « هندا » الذى صار فى الاسلام صحابيا وقد شهد غزوة بدر وقيل غزوة أحد .. وكان يقول : أنا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا .. أبى رسول الله صلى الله وسلم وأخى القاسم وأختى فاطمة وأمى خديجة رضى الله عنها » .

وكذلك أنجبت من هذا الزوج هالة أيضا .. وبعد أن مات عنها زوجها أبو هالة تزوجها عتيق بن عامر المخزومى الذى ولدت له بنتا أسمتها « هندا » وقد أسلمت وكانت صحابية .

عاشت مع الزوجين عيشة راضية .. قامت فيها خديجة بأعظم ما تقوم به زوجة وقدمت لزوجيها خير ما تقدم زوجة لزوجها .. كان مبدؤها الذى سارت عليه أن الزواج تعاون بين الزوج والزوجة وحرص من الزوجة على رضاء زوجها وأن تحفظه فى ماله وفى أهله وفى غيابه من هذه القاعدة العظيمة لكل زواج ناجح مثمر ، منحت خديجة كلا من زوجيها المتواليين كل ما يمكن أن تمنحه المرأة العاقلة الفاهمة .. أطاعته واحترمته وشجعته ووجد فى قلبها عطفا أنس به وارتاح اليه وأحس عندها بسعادة كان يرجوها فاطمأن اليها ومنحها من قلبه مثل ما منحته من قلبها ..

ولخلقها العظيم أحبها كل من الزوجين على التوالى .. ولسمعتها الطيبة ... ما ان مر وقت قصير على موت زوجها الأول .. حتى تقدم لها أشخاص عديدون الى أن استقر الرأى على من كان لها الزوج الثانى .. لكن الموت لم يمهله أيضا ..

ففضلت من بعده أن تبقى بلا زواج وحسبها من الحياة الزوجية ما قضت .. وتعيش لثروتها التى ورثتها عن أبيها وزوجيها .. وأبنائها منهما .. فأخذت تدبر أموالها أحسن تدبير .. وترسل القافلة بالتجارة الكبيرة الى الشام صيفا والى اليمن شتاء مثلما يرسلها الرجال وعليها عمال أمناء أحسنت اختيارهم فتعود القافلة بالربح الجميل الذى يجعلها محط أنظار القوم اعجابا وتقديرا .. وتفيض منه على المحتاجين والفقراء من أهل مكة فضلا وعطاء يزيد من حولها القلوب المحبة .

ولكن الرجال لم يسكتوا عن طلبها .. فما تشوق كل رجل فى مكة أن يحوز شرف الزواج من خديجة .. صاحبة الفضل والذكاء والثراء .. فطلبها كثير منهم .. ورغم ذلك لم تستجب الى هذه الرغبة اذ وجدت فى نفسها عزوفا كبيرا يمنعها ..

وظلت على هذا الرأى .. كما ظل الرجال على طلبهم .. والايام تمر ..

وفى ذات يوم ... بعد أن أنهت ما تطلبه المعيشة من أعمال منزلية .. أوت الى فراشها .. وليس فى ذهنها ما يشغلها غير أبنائها الأيتام والقافلة التى ستذهب فى رحلة الشتاء الى اليمن بعد أيام .

وما أن مر وقت قليل حتى استغرقها النوم ورأت فيه رؤيا كالحقيقة الناصعة جلاء ووضوحا .. رأت فيها شمسا عظيمة مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالا وجلالا تهبط الى دارها من سماء مكة فيغمر ضوؤها ما يحيط بالدار من دور ومنازل ويتدرج الضوء حتى غمر الدنيا حيثما تتوجه بناظريها فقامت من فورها ولم يعاودها النوم فى تلك الليلة حتى الصباح .. وهى تفكر طويلا فى أمر تلك الرؤيا : ماذا تعنى والى ماذا تهدف وماذا يكون تأويلها ..

ومع دبيب الحياة فى مكة ذهبت الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان من أهل العلم والحكمة الذين نبذوا عبادة الأوثان واعتزلوا عبادها .. فى انتظار نبى آخر الزمان الذى بشرت به التوراة كما بشر به الانجيل .. ورأى لقرب مجيئه تباشير

وارهاصات كثيرة نطق بها العلم الذى يقرؤه والكتب التى
يختزنها .. وعاب على أهل مكة ما يعبدون والتزم دين
ابراهيم عليه السلام فاجتنب الخمر والميسر ورحم البنت من
وأدها وافتداها بماله .

ذهبت اليه خديجة متلهفة لسماع تفسيره لرؤياها التى
رأتها فى أول الليل وشغلتها عن النوم حتى الصباح ..
رآها ورقة فاستفسر عن سر مجيئها الباكر فقصت عليه
ما رأت .. فاستبشر وضحك وقال لها مبشرا « لك البشرى
يا خديجة يا ابنة العم .. فهذه الشمس المضيئة علامة على
قرب ظهور النبى الذى أطل زمانه ودخولها دارك دليل على
أنك أنت التى ستتزوجين منه » .

دهشت خديجة بنت خويلد لذاك التفسير .. ورغم أنها
لم تعلق عليه فقد ترسب فى أعماقها .. وشيئا فشيئا كاد
يسدل عليه ستار من النسيان ..

* * *

كان محمد غلاما ينع صباه وييسر به شبابه نحو الاكتمال
.. ويتردد فى أرجاء مكة صدى الحديث عن صفاته وأخلاقه
وعفافه وأمانته تلك الصفات التى لم يعهدها القوم فى شباب
من شباب مكة غيره .. ولقب بالامين .. وقدم على شباب
مكة بل وفى بعض الاحيان على مسنيها وهو لا يزال فى ميعة
الصبا .. توفى عنه جده عبد المطلب وكفله من بعده عمه
أبو طالب وكان كثير العيال كثير الاعباء .. فما أن بلغ
محمد العشرين من عمره حتى قال له عمه : يا ابن أخى أنا

رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون
منكرة وليس لنا مال ولا تجارة وهذه عير قومك قد آن
خروجها الى الشام وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون
فى مالها ويصيبون منافع فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما
يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك وان كنت أكره أن تأتى
الشام وأخاف عليك يهود وقد بلغنى أن خديجة استأجرت
رجلا ببكرين ولسنا نرضى بمثل ما أعطته فهل لك فى أن
أكلمها .

فقال محمد فى لطفه ووداعته : ما أحببت يا عمى

فذهب أبو طالب الى خديجة وقال لها .

— هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمدا .

فأجابت بالهام فورى :

— لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا .. فكيف وقد
سألته للقريب الامين وقابلها محمد فقالت له .

— دعانى الى أن أبعث اليك ما بلغنى من صدق حديثك
وعظم أمانتك وكرم خلقك وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلا
آخر من قومك .

فانبسطت أسارير وجه أبى طالب وقد غيرت الأعباء مع
السنين ملامحه وقال لابن أخيه .

— يا محمد .. هذا رزق ساقه الله اليك .

* * *

ذهبت القافلة بتجارة خديجة فى أمانة الأمين محمـد الى الشام وعادت بخير لم يسبق أن حققته قافلة لها من قبل .. واستقبلته خديجة فى سرور بالغ وامتنان عظيم .. « ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام . وأنصتت اليه شبه مأخوذة حتى اذا ودعهـا ظلت واقفة حيث هى تتبعه عيناها الى أن توارى فى منعطف الطريق « أى شىء حدث لخديجة » لقد خبرت الدنيا وعرفت الرجـال وتزوجت مرتين باثنين من سـادات العـرب وأشرافهم .. واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان على تجـارتها فما رأت فيمن عرفت ذلك النمط الفريد من الرجال واستغرقت فى تفكيرها تستعيد صوته العميق الساحر وهو يحدثها عن رحلته ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال » .

شىء ما .. أخذ يدوى صداه فى أعماقها .. وتلح عليهـا صورته .. شىء غامض ألقى عليها الحيرة والتساؤل ــ فأخذت تستمع الى ميسرة الذى رافق محمدا « فى قافلة خديجة الى الشـام .. سمعت منه أعجب ما يسمع انسان عن انسان .. سمعت من ميسرة حديث الراهب « نسطور » الذى قال فيه بعد أن رأى محمدا يجلس تحت شجرة بذاتها فى معـرى من أرض الشام « يا ميسرة ان من يجلس بجوار هذه الشجـرة وتظله هذه الغمامة المنخفضة وصفاته كما تصف ليس الا نبيا.. فوالذى رفع السموات بغير عمد انى لأجد فى صـحفى أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العـالمين يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الاكبر وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجـا ومن عصاه فقد غوى » .

وأيدته خديجة فقد كانت ترقب الشاب الأمين « محمـدا » وهو قادم على مشارف مكة من رحلة الشام فرأت بعينها هى الأخرى عجابا .. وقالت : صدقت يا ميسرة .. فلقد رأيت اليوم بعينى عجبا .. رأيت مع القافلة سحابة بيضاء تصحب هذا الأمين حتى دارنا .

بدأت الأحداث والرؤى تترابط فى مخيلة خديجة بنت خويلد: فى أعطافها شىء ينبض بالحنان والتقدير والتعظيم لهـذا الفتى الأمين ، وفى طيات ذكرياتها رؤيا تكاد تكون كالشمس فى قبة السماء وفى أحاديث القوم أسرار مشرقة وانبعاثـات الهية تفيض على ألسنتهم نورا وهم يذكرون هذا الفتى .. وذهبت الى ابن عمها « ورقة بن نوفل » تلقى عنـده بعبء حيرتهـا بـين كل ذلك .. وقصت عليه كل مـا سمعت وكل ما شهدت فقال لهـا ورقة :

« ان كان هذا حقا يا خديجة فان محمدا نبى هذه الأمـة فلقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر وهذا هو زمانه الذى فيه يبعث ..عشت طوال حياتى أرقب هذه النذر .. ثم جاءت أنباء ميسرة فزادتنى يقينا وايمانا وجاء حديثك ليكون زكاة جديدة لايمانى بأن محمدا هو دعوة ابراهيم الخليـل ليكون رحمة العالمين . اقدمى يا ابنة العم على ما تريدين فى نفسـك .. لا تحجمى ولا تترددى فأنت أسعد نساء قريش .

تبلور الأمر فى فكر خديجة .. وأدركته صـديقة لهـا هى نفيسة بنت منبه .. فاعتزمت أمرا ..

* * *

تم زواج محمد — قبل بعثته — من خديجة — وهو فى نحو الخامسة والعشرين وهى فى أغلب الأقوال فى الأربعين ..

فجاءت أول زوجة لأكرم انسان .. تهيىء له بيتا سعيدا وتنجب له زينة الحياة الدنيا — بنين وبنات — وتشاركه آماله وآلامه .. وتقاسمه تبعاته ومسئولياته .. تفرح لفرحه وتحزن لحزنه .. وتلين له حياته فى وداعة وفى رقة وفى حنان وفى شجاعة ..

وقضى معها زهرة شبابه منفردة بمكة .. لم يتزوج عليها فى حياتها ولم تشاركها أى من الضرائر اللاتى تعددن بالمدينة وبعد موتها لمبررات اقتضتها ظروف الرسالة .

لكن .. كيف تم هذا الزواج بين هذين الطرفين الفاضلين .. هو فقير وهى موسرة . هو شاب وهى تعدت سن الشباب .. هو لم يسبق له الزواج وهى سبق أن تزوجت مرتين ومات عنها رجلاها .. ؟

هل خطبها الشاب الأمين محمد لنفسه ؟

لا .. لم يتقدم .. وربما لم يطف بخياله هذا الخاطر ..

لكن .. ربما طافت مشاعر معينة فى نفس خديجة عند لقائها بالشاب الأمين محمد بعد عودته بتجارتها من الشام رابحة أروع الربح وأجزله وتواردت على فكرها صور مختلفة بين الحلم الذى رأت .. وبين تفسيرات ابن عمها ورقة ابن نوفل لهذا الحلم وارهاصات وبشائر أبداها لها عن مستقبل مرجو فى محمد .. ودلائل ملموسة وأحداث وقعت

تمس محمدا فى رحلته بتجارتها الى الشام رواها لها بعد العودة ميسرة .

وفى هذا الموقف تقول الدكتورة بنت الشاطىء بمنطق وأحاسيس المرأة المسلمة الدارسة الواعية .

« واستغرقت فى تفكيرها تستعيد صوته العميق الساحر وهو يحدثها عن رحلته ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال .. وفجأة ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى فهزها شعور مباغت وانثنت تسائل نفسها « فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد ؟ ترى هل مسه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع وطاب له الرقاد ؟ واذ تلقت جواب القلب انتفضت مذعورة لا تدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت — فى حساب بيئتها — من حياة الرجال .. وهتفت بقلبها : أن حسبك فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة عقيما ؟

هذا الوجيب فى القلب .. وتلك التفسيرات والبشائر ... والروايات التى سمعت ... كل ذلك جعلها فى حيرة من الأمر لم تخف على صديقتها نفيسة بنت منبه .. عرفت نفيسة ذلك بغريزة المرأة .. وصارحت خديجة مصارحة الألفة والصداقة وذهبت الى محمد تحوم فى حديثها معه حول الزواج . وما منعه أن يتزوج حتى ذلك السن ومن عادة شباب العرب أنهم يتزوجون فى الغالب دون العشرين .. وتدرج الحديث حتى أصبح عن زواجه بخديجة فقال :

ـ وكيف لى بذلك ؟

قالت نفيسة :

ـ على ذلك ..

وعادت الى خديجة تنبئها الخبر وتحكى لها كل ما فعلت .. فى الوقت الذى ذهب فيه محمد الى عمه وأنبأه ما كان فقال له عمـه :

ـ يا بنى ان افتقرت الى المال فأنت غنى فى الشرف والمحتد والنسب .فرد عليه الأمين بقوله .

ـ يا عمى .. اننى لا حاجة لى فى مال ولا حاجة بى اليه.
وتجلت آية الله والتقت الرغبتان .. وتقـدم الشرفـان العظيمان فى طريق الارتباط . قالت خديجة :

ـ يا ابن العم انى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ..

فقال لها الأمين وقد أسره الجميل وملك عليه خاطره .

ـ والله لقد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبدا ..

❋ ❋ ❋

ذهب أبو طالب مع محمد زين الشباب فى مكة خلقـا وأمانة وصدقا ورقة ومحبة ـ الى بيت خديجة وهنـاك فى حفـل الزواج قال أبو طالب مقدما ابن أخيه .

ـ الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وأصل معد وعنصر مضر .

وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه .. أما ابن أخى محمد لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا .. وان كان فى المال قلا .. فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة .. وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولهـا فيـه مثـل ذلك .

ووافق أهل خديجة وعشيرتها وعلى رأسهم عمها عمرو بن أسـد . وزفت سيدة قريش الى زوجها سيد شباب مكة .. وبدأ الزوجان حياة ملأتها المحبة وقامت على المودة ـ والرحمة واستقرت على التفاهم والتعاون .

هو الزوج الكامل والرجل الكريم الفاضل ...

وهى الزوجة الكاملة المحبة الحانية التى تعوض محمدا عما فقده من مشاعر الأمومة فىصباه الباكر نبعا من الحنان لا ينضب ورزقا من البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ومن البنين القاسم وعبد الله ولم تتزعزع عواطفهما ولا حياتهما الزوجية عندما ذاقا فى خلال تلك السعادة لوعة الثكل فى الوادين ـ وما أكبر قدر الولد فى بيئة مكة ـ « فكان للزوجين فى وفاقهما وتصبرهما ما أعانهما على تجرع الـكأس التى تـدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد وما كان ولداهما الا وديعة ولابد يوما أن ترد الودائع » .

❋ ❋ ❋

كانت الأحاديث الكثيرة تلتقى فى مكة بأنبـاء ارهاصات فى الجزيرة العربية يتحدث بها الكهان والمتحففون عن نبى جديد حان مبعثه ورسالة سماوية آن أوانهـا ..

ومحمد كان منذ صباه الباكر ينزع الى التـأمل والتفكير المتدبر المستغرق فيما يرى حوله من كون وخلائق .. وأرهف حسه هذا التأمل وهذا التفكر .. فاذا هـو وقد استشف منذ الصغر أدق ما فى الكون من أسرار ولمح أن وراء كل ما يرى من جمال وجلال .. قوة عظمى خفية تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مضطردة .. « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » ولذلك فقد عاف بفطرته السليمة وعقله الكبير وقلبه الطـاهر المصفى عبر أجيـال منذ جديه العظيمين ابراهيم واسماعيل عليهمـا السلام وقد أقاما الكعبة البيت الحرام للطائفين والعـاكفين والركع السجود مثابة للناس وأمنـا ... عـاف بكل ذلك عبادة الأوثـان واستبشـع ما رآه فى ذلك من قومـه ونأى بالخلوة عن مشاركتهم يتعبـد لله ويتحنث وما كان أسعده بهذا .. غير أن ظروفه المادية وواجب الكفاح اليومى لم يتح له الاستجابة الكاملة لكل ما فى نفسه من رغبـة الى الاختلاء وميل الى التأمل فى مظاهر الكون فقد كانت أمور العيش التى التزم بهـا لفقره ويتمه تمنعه عن ممارسة كل ذلك ممارسـة كاملة .

وعند خديجـة بالذات ملامـح كبيرة من هـذه البشـارات والارهاصات بل فى قلبهـا أمل كبير أنها ربمـا تكون زوجـة هذا النبى المنتظر .. ولم يكن قـول ورقة ليبعد عن التردد فى آفاق نفسها بين الحين والحين .

« لك البشرى يا خديجة .. فهذه الشمس المضيئة عـلامة

على قرب ظهـور النبى الذى أظل زمانه ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه » .

لذلك .. لمـا تزوج خديجة كانت له الزوجة العاقلة اللبيبة كبيرة القلب التى وهبت نفسها أن تقف بجانب زوجهـا .. فعوضته بحنانهـا عن يتمه وعوضته برحـابة الرزق ويسر الحياة عن الكدح الذى يستهلك وقته دون ما يحب من خلوة يتنسك فيها ويتعبد ..

ذلك الشىء الذى كان فطر عليه .. وتركت له خديجة الحركة كما يشاء فلم تثقل عليه بأمور المنزل والبنين والبنـات ولم تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهـود من فضول النسـاء .. فكان يذهب الى غار حراء يخلو فيه أوقاتا كثيرة متفكرا فى صنع الله .. وعاد بكل طاقته الى الاختلاء الحبيب الى نفسه والذى يسعده أيما سعادة .

وهنا تجلت مناصرة خديجة لزوجهـا ووقوفهـا معه بكل مشاعرها .. فأحاطته بالعطف والرعاية والتقدير .. ولـم تعترض على خلوته بعيدا عن داره طوال شهر رمضان الذى كان محمد يختار أيامه للخلوة .. بل وزادت على سلبية تركه حرا يذهب كما يشـاء ويتحنث فى خلوته كما يريد .. فكانت ترسـل وراءه من يحرسه ويرعاه دون أن يقتحم عليه خلوته وزادت أن كانت تذهب بنفسها الى الغار ليطمئن قلبها عليه فى هذه الخلوات . نعم الزوجة ، أعانت زوجها على ما يريد .. هيأت له الفرصة كى يبذل من نفسه فى سبيل ما يلح عليه ..

وشارف محمد الأربعين •• وكان قد ألف الخلوة فى غار حراء واستطاب رياضته الروحية هناك حيث يستعد بخلوته ونسكه « شأن الأنبياء الأصفياء الأنقياء الذين يصطفيهم الله بعلمه ويصنعهم على عينه ويختارهم لنفسه » •

وجاءه الوحى من رب السماء الذى ظل طول حياته يرقبه فى بديع صنعه وجلال خلقه • جاء الوحى ليهز نفس محمد •• ثم من بعد يهز الدنيا كلها هزا عنيفا ليعيد لنفس الانسان بناءها ولعمر الانسان على الأرض صياغته ••

وهو فى غار حراء جاءه وحى السماء يحمله جبريل الأمين •• تبدى له ملكا جميل الصورة وبيده صحيفة من ديباج وخاطبه قائلا : اقرأ فقال محمد ما أقرأ •• فضمه جبريل اليه وأرسله وقال له اقرأ •• فقال محمد ما أقرأ •• فضمه الملك ضمة شديدة أحس معها النبى المرتجى أن هذا الملك يكاد يخنقه وأرسله ثم قال له اقرأ فقال النبى ماذا أقرأ ؟ فقرأ عليه جبريل قول الله سبحانه وتعالى •• « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » •

قرأها محمد ونقشت فى قلبه الطاهر الذى يعرف الله ••• وهب قائما فزعا والعرق يزيد غزارة فوق جبينه المضىء ونفسه السمحة يتردد فيها التساؤل : ما هذا الذى يرى •• وغادر الغار مسرعا وهو يخشى أن يكون أصابه مس من الجن•• وأخذ يخطو فى شعاب الجبل عائدا الى داره فى مكة واذا به وسط الجبل يسمع صوتا يناديه •• فرفع رأسه ليرى ما كان

رأى من لحظات •• رأى الملك وقد تمثل فى صورة رجل يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ••

فزاد الرعب فى قلبه •• واشتد عليه الفزع •• فأسرع الخطو الى ملاذه •• الى خديجة زوجته الشريفة اللبيبة العاقلة الحانية •• وأفضى اليها بكل ما كان •

وجاء الدور العظيم للمرأة التى اختارها الله •• لتختار هى •• على عكس عادات القوم •• محمدا زوجا لتقف بجانبه تشد من أزره وتكون له النصير أول ما يحتاج الى نصير •• وتكون له الكلمة الشافية والنغمة المطمئنة الباعثة على الأمن والثقة حين يكون فى مسيس الحاجة الى هذه الكلمة وهذه النغمة •

فاستمعت الى زوجها بكل العقل والعطف والثبات •• واحتضنته بكل ما عرف الناس من عواطف الأم والأخت والزوجة والحبيبة •• وامتلأت ثقة أن ذلك الذى حدث هو اكرام من الله له •• اتصل قلبها بقلبه الذى ينبض فى خوف وفى جزع وقالت له جادة راسخة موقنة :

— « الله يرعانا يا أبا القاسم • أبشر يا ابن عم واثبت • فوالذى نفس خديجة بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة •• والله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتؤدى الأمانة وتصدق الحديث وتعين على نوائب الدهر » •

استراح محمد لقول زوجته واطمأنت نفسه وزايله روعه وذهب عنه عبوس الخوف وأشرقت منه الأسارير •• وخطا مع

ناصرته وزوجته الى فراشه وما ان رانت عليه السكينة حتى هبت خديجة خارجة الى ورقة ابن عمها تنبئه ما سمعت وما رأت من أمر زوجها وما يدور فى خلدها بشأنه .

وما كاد ورقة يسمع قول خديجة وهى مبهورة الأنفاس حتى هزه الانفعال وقال فى حماس بالغ وتأكيد موقن :

— قدوس قدوس والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى وانه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت لقد قرب الأوان واستدار الزمان وآن لمكة أن تشهد الآية الكبرى » .

امرأة قوية .. انها خديجة الصادقة .. عزما وحسا وقولا .. تجد تأكيد البشارة أن زوجها محمدا اصطفاه الله نبيا ليعلن للناس الرسالة وانها تبعا لذلك منوطة بمهام جليلة .. أهمها وأجلها .. المناصرة وقد بدأت هذا الطريق من قبل ذلك .. على مدى خمسة عشر سنة من حياة زوجية هانئة .. لكن .. ها هو كما يقول ورقة بن نوفل وقت الحسم .. وهى فى واقع الأمر أهل لهذا الحسم ..

عادت خديجة من عند ورقة تحمل البشرى لزوجها الكريم بأنه نبى هذه الأمة أرسله الله اليها ليقيلها من عثارها ويدفع بها فى طريق الانسانية الحرة الخيرة الشريفة واستيقظ محمد يتفصد العرق من جبينه وتتثاقل أنفاسه كأنما هو خارج لتوه من لقاء خطير أو عائد من رحلة كانت قيظا ومشقة وتبدو عليه أمارات الاستماع الى محدث لا يراه أحد ثم أخذ يتلو وحيا جديدا .

« يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر »

نعم .. مرحلة جديدة دخلها الزوج .. ألقيت له الرسالة واضحة جلية كانبلاج الصبح لا يمارى فيه اثنان .. بعد أن كانت ميلا الى الوحدة وعزوفا عما يفعله القوم ... جاءه الأمر وعليه البلاغ للناس أجمعين ...

وعى بفطرته ذلك .. ونهض من فراشه وهو يعاود النظر اليه كأنه يودعه وينظر الى زوجته الحانية وقد وقفت أمامه بوجهها الذى تضيئه البشرى فقال لها معلنا العهد الجديد وقد اتضحت أمامه صفحة الغيب :

— انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته ..

ثم بعد هنيهة .. استطرد صلى الله عليه وسلم قائلا ووجهه فى وجه خديجة الذى يملأ دنياه أمنا وحبا وسلاما ..

— فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب ؟

* * *

فقالت خديجة بنفس احساسها السابق بالمناصرة وهى تأخذه فى حنانها وبين ذراعيها عندما عاد مرتعشا وجلا من غار حراء ناصرته فى تلك اللحظة دون أن تناقشه . ودون أن تستوضح شيئا .. وعادة القوم اذا بهرهم شىء .. وقيل لهم مدوا أيديكم ترددوا مرات ومرات ..

لكنها المرأة القوية بلا حدود والمحبة بلا حدود والمعطية من نفسها وجماح قلبهـا الى زوجها الكريم بلا حدود .

لم تنتظر الا ريثما أتم التساؤل : فمدت يديها تستقبله بكل ما تعوده منهـا من عاطفة سامقة وقلب كبير وقالت فى حماس منقطع النظير .

ــ أنا أستجيب يا محمد .. فادعنى قبل أن تدعـو أى انسـان وانى لمسلمة لك مصدقة برسالتك مؤمنة بربك .

طابت نفس محمد لما سمع .. وباركها وهو يشعر بالراحة والسكينة .

وصارت خديجة أول مسلمة وأول مناصرة للاسلام فى ظل زوجها الكريم النبى محمد صلى الله عليه وسلم .. موقف مجيد من مواقف خديجة عن عقل وعزيمة يقول فيها الأستاذ عباس محمود العقاد :

« لم يجد محمد جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ماتصنع .. بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهـدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشـية فؤاده .. لم يكن قصارى الأمان عن حليلته التى سكن اليها حنكة السن وحنان الأمومة .. ولكنه أمان الذى يعرف نشأته ونشأة آله .. ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة وما عاقبة الصبر على الأنواء التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفء لها من بنى آدم وحواء » .

طمأنته وزفت اليه البشرى بعد أن وقفت بجـانبه وتلقت

رسالته فى تسليم مطلق وايمان ثابت ويقين شديد .. وذهبت معه الى ورقة الذى ما كاد يرى محمدا صلى الله عليه وسلم حتى قال له :

ــ «والذى نفس محمد بيده انك لنبى هذه الأمة .. ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أنـا أدركت ذلك اليـوم لأنصرن الله نصرا يعلمـه » .

وقـدم منه وقبل يافوخه وسأله الرسول .

ــ أو مخرجى هم ؟

قال ورقـة :

« نعم .. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى .. ليتنى أكون فيها جذعا .. ليتنى أكون حيا » .

* * *

انتهى يا خديجة عهد النوم ..

صدق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .. بدأ الكفاح من أجل الدعوة .. بدأ النضال والمواجهة .. وهو لا يملك من أنصار على سطح الأرض الا خديجة .. توالى بعدهـا أقرب الناس الى روحه وقلبه .. الصديق أبو بكر أول الرجال والفتى على بن أبى طالب أول الأحداث المؤمنين .

بدأ محمد المعاناة .. والصد .. والتكذيب . .وكل شىء

أراد به الكفار ايقاف الدعوة التى تهز أركان مجدهم القائم على الباطل والظلم والكفر والجهالة ..

أخذ فى نشر الدعوة .. وأخذ الكفار يزيدون فى عداوتهم له لكنه مضى بأنصاره هؤلاء غير عابىء بما يلقى .. أو مفتن لما يرى ..

أنذر عشيرته الأقربين فآذوه وحقدوا عليه واستكثروا أن يصطفى لهذه الدعوة الجليلة وهو من دونهم اليتيم الفقير .. لكنه صبر وصمد وصبرت معه خديجة وصمدت سنين عددا تنصره وتشد أزره وتعينه على احتمال أقسى ضروب الايذاء والاضطهاد ... تعمل معه فى ثبات وعزم وجلد تمد يدها تمسح بها جراحه وتواسيه وتشجعه وتبشره بالنصر والظفر وتفتح خزائنها للمسلمين يأخذون منها ما يشاءون وتبذل أموالها فى سبيل الله تدفع القوم وتشترى الأرقاء المعذبين وتطلقهم أحرارا لوجه الله وتفوت على القرشيين تضييقهم على المسلمين فى تجارتهم وأعمالهم .. وتمر الأيام والعذاب يزيد والايذاء يشتد والكراهية تعلن على الناس من الكفار أكثر وأكثر .. والنبى كالجبل الأشم وبجواره خديجة تصد عنه وتقف بجانبه لا يلين لها عزم ولا تفتر لها همة ولا يجرح ايمانها تكذيب أو لحظة تردد ..

واضطرت قريش بنى هاشم وبنى المطلب وهم قوم النبى أن يخرجوا من مكة لائذين فى أطرافها بشعب أبى طالب حيث أحصروا وأعلنت قريش مقاطعتهم الجائرة الظالمة لا يبيعوهم شيئا ولا يشتروا منهم ولا يزوجوهم أو يتزوجوا

منهم .. وسجلت هذه المقاطعة الآثمة فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة .

لم تتخلف خديجة ولم تتخل عن زوجها فذاك رأيها وتلك قضيتها فخرجت مع زوجها الحبيب النبى الكريم الى شعب أبى طالب .. وتركت دارها الحبيبة العزيزة الموسرة مرتع شبابها ومثوى أحلام عمرها ومهجع أمانى الصبا وذكريات العمر .. تركت كل ذلك غير محزونة ولا باكية ولا موهنة بشيخوخة السن ورافقت حبيب الله .. حيث تضرب أوفى المثل وأصدق الصور فى مؤازرتها له مؤازرة الصدق والمحبة والاخلاص .. وأقامت مع القوم المحاصرين ثلاث سنوات تذوق معهم أهوال الحصار المنهك وتنفق مالها راضية النفس وتبعث فى قلوب الرجال والنساء معالم التضحية والصبر . وتكافح الوهن الذى أخذ يدب فى جسدها منذ جاوزت الستين وقوة الايمان تعطيها نفسا أنضر ما تكون النفوس وقلبا أصفى ما تكون القلوب .

وفشل الحصار آخر الأمر أمام التحمل الفذ والصبر الرائع بأنواعه الأربعة : الصبر على البلاء ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على العافية .. وعاد الزوجان الى دارهما من جديد .. ولكن .. عادت خديجة بشكل غير الذى خرجت عليه .. نال منها الاعياء واستنفذ الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة فى عامها الخامس والستين فلزمت فراشها ولم يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبقيت هكذا ثلاثة أيام ... وأحست بدنو الأجل .. وما أشد اشتياقها أن ترى الدعوة الاسلامية ترفل فى أثواب

النجاح الزاهر الباهر •• لكن •• وقد جربت الموت من قبل فى زوجين وفى ولدين تعلم أن الانسان وديعة مستردة •• ولكل أجل كتاب •• وها هو الموعد على وشك •• فقالت تبث مناها لابنتها الغالية أم كلثوم •

— ليت الأجل يمهلنى حتى تتجلى المحنة فأموت قريرة العين راضية •

فأجابتها أم كلثوم •

— لا بأس عليك يا أماه •

فاستطردت أم المؤمنين قائلة :

— أى وربى لا بأس على يا ابنتى •• ما من امرأة من قريش ذاقت ما ذقت من نعيم بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد •• حسبى من دنياى أنى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى وأنى أم المؤمنين •

ثم أسبلت عيناها وهى تهمس •

— اللهم انى لا أحصى ثناء عليك اللهم انى لا أكره لقاءك ولكنى أطمع فى مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت على •

ثم أوشكت أن تغادر الدنيا ••• والنبى الحبيب الى قلبها المؤمنة به المصدقة برسالته •• يحوطها بعواطفه وانسانيته الفياضة ووفائه العظيم يهون عليها سكرات الموت ويبشرها بما أعده الله لها من جنات النعيم •• لقاء ما أعطت وأجزلت

وأمنت وناصرت •• بشرها بأن لها قصورا فى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار •• **« ان المتقين فى جنات وعيون • آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »** •

ثم فاضت روحها الى بارئها •• وخيم على الدار حزن عميق •• فقد فيه النبى خير ناصح وخير أمين •• وكانت خديجة بكل ما أوتيت من عقل وفطنة رحمة مهداة اليه من عند الله •• فقد ائتمنته على تجارتها أجيرا وعاونته على خلوته متعبدا متفكرا وآزرته بعقلها ومالها زوجا ورسولا •• حرا يسعى بدعوته بين الناس ، ومحاصرا بين أنياب الكفار والمشركين •• كما كانت أولى المؤمنات القانتات العابدات • وأولى الصابرات المحتسبات •

كان ذلك فى العاشر من شهر رمضان فى السنة العاشرة من البعثة •• يوم سار نعش خديجة من دارها محمولا على أكتاف المسلمين الى مقابر قريش فى الشمال الشرقى من مكة حتى بلغوا الحجون •• ثم وضعوا نعشها على حافة قبرها ونزل الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى باطن القبر وسوى لحدها بيده الشريفة ثم قبل جثمانها الطاهر وأرقده فى مضجعه وألقى على وجهها الكريم نظرة الوداع وخرج عائدا من غيرها الى داره يحمل جرحا عميقا بين الضلوع يرتقب ما المشركون صانعون به فى هذا العام عام الحزن •• بعد فقد خديجة •• الركن الركين فى تصرفه والآخذ بيده والتسرية عن نفسه أمام صدود القوم وايذائهم •

« بانت عن الدار تلك العاقلة اللبيبة الثابتة الرشيدة الطاهرة العفيفة النقية التقية القرشية الشريفة وقد كانت العون عند الشدة والأمن عند الخوف والضوء فى ظلمات الحوادث والفرج عند توالى الكوارث تلك الزوجة المثلى التى عوض الله بها حرمانه من سند الأبوة وعطف الأمومة حين مات أبوه وهو حمل فى بطن أمه وحين تركته أمه طفلا فى السادسة من عمره ومات عنده عبد المطلب وهو لما يتجاوز الثامنة •• كما كانت له وزيرة الصدق التى شد الله بها أزره وشرح صدره ويسر أمره » •

قال ابن اسحاق : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك الا فرج الله عنه بخديجة رضى الله عنها اذا رجع اليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت رضى الله عنها » •

* * *

بموت خديجة دخل الرسول والدعوة مرحلة جديدة

لكن •• هل بموت خديجة •• نسيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ حاشا وكلا ••

فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم الا من أكمل نماذج الوفاء •

ولم تكن خديجة بما جبلت عليه وما قدمت فى حياة الرسول وناصرت دعوته لم تكن خديجة لذلك بالتى تنسى أو ينساها أحد •••

ظل الرسول عليه الصلاة والسلام مقيما على ذكراها وحبها الى آخر العمر لم يغير فكره عنه ومشاعره نحوها زواج •• أو نصر أو هزيمة •• ظل لها الوفى كأنها هى لم تمت وظلت ماثلة بين عينيه •• فما يسير هنا أو هناك الا ويتبعه منها طيف وما ينصب الا وروح طيبة منها تسعده وتعده بالظفر وبالنصر •• وما يسرى فى ظلمة الا ومنها سنى مشرق يبدد ما حوله •• وما يسعى فى نور الا وكأنها فى نفسه وفى عينه هى الضوء الهادىء •

كل أماكن الذكرى مع خديجة كانت من أحبها الى نفسه • كل من عرفتهم خديجة كانوا من أقربهم الى قلبه ••

كل من انتموا اليها قرابة أو نسبا أو صداقة ما كان أرحبه بهم وأضيفه لهم — تلك أختها •• حين يسمع الرسول صلى الله عليه وسلم صوتها وكان يشبه صوت الراحلة خديجة فيقول فى حنين الوفاء : اللهم هالة •

وتلك قلادتها التى أهدتها الى ابنتها زينب يوم زواجها تفدى زوجها العاص بن الربيع من الأسر قبل أن يدخل الاسلام •

وتلك الذبائح يذبحها الرسول لا يفوته أن يقول عليه الصلاة والسلام موقعا على لحن الوفاء لخديجة : أرسل الى أصدقاء خديجة ••

وما أصدق وفاء النفس فى رده حين كلمته عائشة فى ذلك •• عائشة الصبية الجميلة ابنة الصديق أبى بكر •• فيقول الرسول مرجعا القول عن خديجة : انى أحب حبيبها ••

وتحكى السيدة عائشة رضوان الله عليها •• موقفا من أجل مواقف الوفاء للذكرى وفاء النبى صلى الله عليه وسلم لذكرى خديجة ••

تقول عائشة :

ولقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم صوت هـالة أخت خديجة فى فناء بيته فقال :

ـ اللهم هالة :

فلم تتمالك عائشة رضوان الله عليها أمر نفسها ولم تستطع أن تخفى أحاسيسها التى تدور فى صدرها وهى لا تفتأ تحس دائما بطيف خديجة ماثلا بين عينى الرسول • فقالت له :

ـ ما تذكر من عجوز من عجـائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر أبدلك الله خيرا منها •

فتغير وجهه صلى الله عليه وسلم وقال لعائشة غاضبا :

ـ والله ما أبدلنى الله خيرا منها : آمنت بى حين كفر الناس وصدقتنى اذ كذبنى الناس وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء •

« وحتى يوم الفتح وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات حافلة بأجل الأحداث نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار مكانا الى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجته الأولى خديجة ليشرف منه على فتح مكة وليقيم فى قبة ضربت له هناك تؤنسه روح خديجة ثم تصحبه من بعد الفتح وهو

يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ملتفتا بين آونة وأخرى الى بيتها العزيز حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذلك الكفاح المضنى الطويل » •

انها خديجة •• المرأة العظيمة •• التى ملأت حياة الرسول حية بدورها الجليل معه •• وميتة بوفائه العظيم لها •• جاءه جبريل عليه السلام فقال •• يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها اناء فيه ادام •• فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب •

صـلاة الله وسلامـه على محمد •• الزوج العظيم •• والرسول العظيم •

وسلام الله على خديجة •• أم المؤمنين •• وأعظم النساء •

أبو بكر الصديق

رضي الله عنه

« لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ...
ولكن صحبة واخاء وايمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

صاحب رسول الله :

بعد أن عاشر النبى صلى الله عليه وسلم •• وآنسه فى شبابه قبل بعثته وآمن به — أول من آمن من رجال مكة — بمجرد أن دعاه الى الاسلام ورافقه من بعد فى كل خطوة ومسيرة حتى قال النبى يصف علاقته به ••• ومتى •• ؟ فى آخر كلامه قبل أن يفارق الحياة « **لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا •• ولكن صحبة وأخاء وايمان حتى يجمع الله بيننا عنده** » •••

وفارق النبى دنيا الناس الى جوار ربه •• فجاء أبو بكر يؤكد رسالته ويحمى مبادئه ويسير على منهجه •• ويبعث اليقين فى كل نفس ان أبا بكر هو الحفيظ على ميراث محمد ••

ماذا كان وراء ذلك •• يدفع أبا بكر منذ سبقه فى الايمان بمحمد دون تردد كما قال النبى ورواه ابن هشام •••

— « ما دعودت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ماعكف حين ذكرته له وما تردد فيه » ••

مهما قلنا وراء ذلك أشياء كثيرة .. مثل ثقته فى صاحبه وتصديقه لما يقول ... واحساسه بضلال قومه .. واقتناعه بأن ما جاء به محمد هو ما يحتاجه الناس .. وغير ذلك . فلن نستطيع الا أن نقول انه كان وراء ذلك حب أبى بكر لمحمد .. أسمى أنواع الحب له ..

« حب يندر أن يقع الا بين الأصفياء من بنى البشر .. ولكنه حين يقع يشع نورا يميزه عن سائر العلاقات المألوفة كما يتميز الماس عن سائر أنواع الخرز والزجاج كان يملؤه هذا الحب الذى لا يستطيعه ولا يرقى اليه الا أمثال أبى بكر قبل الدعوة بسنين فيما نرى » ..

هو الحب العظيم الفذ وراء هذا الايمان الفذ ..

هو الحب القلبى الطاغى .. المنطلق بلا حدود ولا عوائق .

هو العشق الروحى الجارف ... الذى لا يقف فى سبيله شىء ... بل كل ما فى الحياة بين الحبيبين يدفع اليه ويعمقه ويؤكده ...

حب عظيم فذ ... بل هو أسمى نوع من الحب عرفته الدنيا ..

« أساسه الشعور بحضور المثل الأعلى الذى كان يحلم به العاشق فاذا « المطلق » الذى تعلق به قلبه وقد تمثل فى فرد من البشر ... وانه ليدرك بقلبه مراميه وآفاق تحليقه الخارق ولكنه لا يجد فى نفسه تمام القدرة على مثل صنيعه فيعيره روحه .. يشاركه قوة جاهه فى اقرار واعجاب وخشوع » ...

ولولا هذا الحب العظيم الذى عمر قلب أبى بكر لمحمد بن عبد الله لما كان هذا الايمان الجارف ..

صاحب محمدا فى حياته بصدق وخشوع وحنان وسمت رفيق وقلب رحيم ومنتهى التفانى ... وكل ذلك ثمار يانعة للعاطفة الجياشة والحب الكبير .. العظيم لدى أبى بكر ...

ثم لما بعث زاد فى قلبه حبه ... لو علم أن الذى أصابه ... امتنع عن النوم والراحة والطعام والشراب حتى يطمئن على حبيبه .. اذا حدث ايذاء فى حضوره وقف بجسمه النحيل وقوامه الدقيق ... وقف دونه ... يحول بينه وبين ما يقع عليه بل يتلقاه هو من دونه ...

قال عبد الله بن عمرو بن العاص .

— اجتمع المشركون من قريش وتذاكروا دعوة محمد وتسفيهه آلهتهم وتحريضه على أصنامهم ...

الى أن قال : —

— « فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا عليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون ...

— أنت الذى تقول كذا وكذا ...

فقال النبى ..

— نعم أنا الذى أقول ذلك ..

ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : —

ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .
تلقى ضربهم وهو يحمى الرسول بنفسه وأصابه من ذلك جرح عميق فى رأسه كما قالت أم كلثوم ابنته ...

ـ رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ..
انه الحب العظيم يتفانى به أبو بكر فى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ..

* * *

ظلت صحبة أبى بكر للنبى .. حبا فى حب .. ملك عليه نفسه ... كل كيانه وكل احساسه وكل تفكيره بل وكل أعماله وأقواله وما أمر صحبته على طريق الهجرة الا أروع نموذج لذلك الحب العظيم ...

جعل يمشى أمام الرسول مرة وخلفه مرة أخرى .. وهكذا على طول الطريق ... يتناوب السير من أمام الرسول ومن خلفه وعن جانبه لا يستقر على ناحية فقال له الرسول ...

ـ مالك يا أبا بكر ...

ـ فقال

ـ يا رسول الله .. أتذكر الطلب فأمشى خلفك وأذكر الرصد فأمشى بين يديك ومرة عن يمينك ومرة عن شمالك .. لا امن عليك ..

ولما وصلا الى غار ثور قال أبو بكر ..

ـ مكانك يا رسول الله حتى استبرىء لك الغار فان كان به شىء نزل بى قبلك ـ فاننى ان هلكت فأنا رجل

واحد من المسلمين وان أصبت أنت هلكت الأمة ..

ونزل أبو بكر .. واستوضح جوانب الغار .. فلم يجد به شيئا وبالغ فى حذره وحيطته وعنايته بحبيبه رسول الله فأخذ يسد شوق الغار بقطع اجتزأها من ثوبه ..

« وهى حادثة ناطقة بذاتها : ان هذا فعل المحب الذى يقدس حبيبه حتى ليفتديه بنفسه فى غير تردد ـ وهو ما لايشبهه الا صنيع أم مفرطة الأمومة بوليدها تدفعها الغريزة بغير تفكر أو تدبر فى لحظة الروع أن تلقى بنفسها على مصدر التهلكة لتكون وقاء له ان كان ثمة وقاء أو فداء له ان لم يكن فى الأمر حيلة دون الفداء ... صنيع لا يصدر الا عن اسمى مشاعر الحب والولاء ... » .

* * *

ان كل يوم فى صحبة أبى بكر لمحمد عليه الصلاة والسلام .. لا .. بل كل ساعة .. بل كل دقيقة .. هى علاقة خالدة ورائعة ونادرة الوجود .. من الحب والعشق .. ينتفض له كيان أبى بكر ويذوب منه شوقا وحنانا .. ويفنى فيه طاعة وفداء وولاء .. حب عظيم لا وجود لمثله . دفع أبا بكر بكل صدق المشاعر .. ورقة القلب وروعة الحب أن يجعل حياته كلها لمحمد ... لا لأسرته وفيها الأب المسن وأبو بكر ابن بار ... ولا لأبنائه وبناته وأبو بكر نعم الأب العطوف الرءوم ... ولا لأمواله وتجارته وأبو بكر تاجر حصيف يعيش من تجارته لا لشىء من ذلك بل حياته كلها بأهله بأبنائه ... بأمواله بكل ما فيها من أجل حبيبه محمد ..

كان فى جيش قريش يوم بدر ابنه عبد الرحمن وكان فارسا مقداما شجاعا يحتل ببراعته فى قتال السيف ورمى النبل أرفع درجة .. آخذ عبد الرحمن يصول ويجول ويطلب مبارزا من المسلمين .. فوثب أبو بكر يناجز ابنه ... ولكن الرسول منعه من ذلك .. ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه انه كان هدفا لسهامه يوم بدر ولكنه انصرف عنه برا بأبوته واجتنابا لعقوق الوالدين ...

فقال أبو بكر انه لو كان — أى ابنه — على مرمى سهام أبى بكر يومئذ لما عدل عن قتله وهو فى صفوف المشركين أعداء محمد وراغبى قتله ..

« وهكذا نسى هذا الأب — على فرط حنانه الطبيعى — عاطفة الأبوة ازاء ابنه عبد الرحمن فلم يذكر سوى أن عبد الرحمن يقاتل محمدا فى صفوف أعداء محمد .. وصارح ابنه أنه ما كان ليتحاشى قتله يوم بدر وقالها صادقا لأنه أقوى عاطفة لا لأنه مهزول الوجدان ولكنها عاطفة ينفرد بها ... ومن هنا كان تفرده فى ثمارها ومظاهرها » .

* * *

بهذا الحب الكبير ... وهذه العاطفة الجياشة ... المنكرة لكل شىء الا اذا كان للحبيب .. لزم أبو بكر نبى الله فلم يتركه فى غزوة كبيرة أو صغيرة ولم يترك مجلسه ولم يغب عن تواجده بجانبه فى كل أمر ...

« كان دائما ثانى اثنين فى مواطن الشدة الحاسمة ، وكان الأول دائما بين القلة النادرة من جلة الصحابة حينما يتسع نطاق الموقف والمشورة ...

وكذلك .. الى ختام حياة محمد صلى الله عليه وسلم قال أيوب بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم ثم قال :

— ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وما عنده فاختار ما عند الله .

ففهمها أبو بكر وعرف أن النبى نفسه يريد فبكى وقال :

— بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ..

فقال النبى :

— على رسلك يا أبا بكر .

ثم قال :

— أنظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدها الا باب أبى بكر فانى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة يدا منه.

وبعد أيام ... مات محمد ... وتمت البيعة لحواريه وصديقه أبى بكر فصار خليفة لمحمد ... مفاجاءات أعماله وأقواله وهو الشخصية الأولى أمام المسلمين الا — كالعهد به — تعبيرا عن حبه السامى لحبيبه محمد ... ذلك الحب

الذى جمع بينهما على نحو رائع أعظم ما تكون الروعة ..
ويضرب كل يوم مثلا فى تأكيده ....

* * *

تولى الخلافة ... وما أعمق الحرج فى قلبه لفراق حبيبه ..
ولكن الحبيب فى عرف المحب لا يذهب بالموت وانتقضت الأرض
العربية من حوله .. وأخذت تخلع عنها رداء الاسلام بدرجات
متفاوته ... فيهـا من يخلع الرداء بكامله ... ويرتد عنـه
الى كفره وشركه ... وأيام جاهليته التى لم تزل قريبة العهـد
بفكره وقلبه ووجدانه بفوضويتها وهمجيتها ...

ومنها من يخلع بعض الرداء ويتحلل من تأدية الواجبـات
المفروضة كالزكاة ..

اذن فالأمر ما أخطره ... انه يهدد عنـد أبى بكر ذكرى
الحبيب ويجترىء على رسالته ويتحدى دعوته .

ولم يلبث الا قليلا حتى جاءه النبأ بأن القريبين من المدينة ــ
معقل خلافة المسلمين ــ أبوا أداء الزكاة ... وأضربوا عن ذلك
وأعلنوا أنهم لن ينزلوا على حكم أبى بكر فى ذلك الأمر حيث
قالوا ..

ــ ما دام الرسول قد مات فلا ندفع الزكاة لأحد ..

* * *

ماذا يفعل أبو بكر ...

فى هذا الأمر الذى يمس وفى الدرجة الأولى رسالة محمد .

فقال بمـا عاش له من حب لمحمد ... ملك عليه ليله ونهاره
وقلبه ووجدانه .

ــ والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسـول الله
ــ صلى الله عليه وسلم ــ لقاتلتهم على منعه ..

لن تثنيه عن قتالهم مهادنة .. ولا خوف من هزيمة ولا عدم
استعداد أو استكمال عدة .. ولا رأى يرى فيهم الكثرة وفى
المسلمين القلة ولا رأى ينادى بأن ينتصر الخليفة بهؤلاء على
المرتدين حتى تحين الفرصة لهم أو يعـدلوا .. ولا برأى عمر
وكان هذا الرأى قويـا فقد كان من عمر عندما قال :

ــ كيف تقاتل أناسا مسلمين ، ألم يقـل النبى « أمرت أن
أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله
فمن قالهـا عصم منى ماله ودمه الا بحقهـا وحسابهم على
الله » .

لا هذا ولا ذاك يغير من مسيرة الحب فى قلبه ... فقال :

ــ والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسـول الله
صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ..

انما هو الآن يصدر بنفسه وارادته وكيانه جميعا عن عاطفة
غلابة .. عاطفة المحب . ثار غضبه ثورة البراكين تقذف بالحمم
لمـا استشعره من الاستهانة بحبيبه وقد زاد من ثورته أن
يظن المستهينون أن هذا الحبيب ليس ــ وهو فى قبره ــ فى
مأمن كاف وهو فى كنف محبه أبى بكر ..

كلا ...

ودون هذا تصغر كل كبيرة ويهون كل عزيز ..

* * *

أرسلت القبائل الممتنعة عن أداء الزكاة ـ وهى عبس وذبيان ومن انضم اليهم من بنى كنانة وغطفان وفزارة ـ جموعا تحتشد بالقرب من المدينة ..

وانشطرت هـذه الجموع قسمين لتحيط المدينـة من جميع منافذهـا ثم أوفدوا رجـالا منهم قابلوا كبار المدينة وأعيانها وتحدثوا معهم فى محاولة استمالتهم الى مطلبهم ومساعدتهم عند أبى بكر لاعفائهم من الزكاة والاكتفا باقامة الصلاة ... ولكن أبا بكر لاعفائهم من الزكاة والاكتفاء باقامة الصـلاة والزكاة .. وأنه سوف يقاتل من يمنع حتى ولو عقالا كان يؤديه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ورجعوا بهذا الرأى القاطع الحاسم الى قومهم ... ولكنهم كانوا أيضا استوضحوا مداخل المدينة وكشفوا عوراتها وأيقنوا أنهـا مكشوفة وليس بها من يدافع عنها أو يرد المغيرين عليها ... وأدرك أبو بكر الصديق ذلك ... فجمع المسلمين واعتلى المنبر وقال لهم ...

ـ ان الأرض كافرة وقد رأى وفدهم قتالكم ولا تدرون أليلا تؤتون أو نهـارا وقـد كانوا يأملـون أن نقبـل منهم رأيهم ونوادعهم وقد أبينا ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا .. » .

وما لبث الناس حتى زحفت نحوهم حشود مانعى الزكاة .... تحثهم الرغبة فى أن يضعضعوا من عزيمة المسلمين للقتال .

وأرسل حراس مداخل المدينة الى أبى بكر بخبر ذلك التحرك فاجابهم بأن يلزموا أماكنهم وخرج بمن اجتمعوا معه فى المسجد على الابل يجابهون الجموع المنتظرة حتى يحين الليل فيلبسوا رداءه ويخفوا سراعا للغدر بالمسلمين أهل المدينة ، وهم على يقين أن لن يقاومهم أحد بعد أن رأوا خلو المدينة من المدافعين أثناء زيارة وفدهم لهـا ..

وخرج لهم أبو بكر وقـد جعل لجيشه ميمنة وميسرة حتى طلع الفجر فاذا هم مع عدوهم فى صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم حسـا ولا يحس لهم حركة ..

فاجأهم جيش أبى بكر ... بوضع السيوف فى رقابهم يقتلونهم تقتيلا .. فهبوا يغرقهم الذعر وتشتتهم الرهبة من هول المفاجأة ويعميهم الظلام عن طريقهم واضطربت نفوسهم وهزهم القتال هزا عنيفا ، وأبو بكر ... ثابت بايمانه العميق .. وحبه العظيم .. والمسلمون معه يدا واحدة وقلبا واحدا يقتلون عبسا وذبيان ومن ناصرهم ويرمون برءوسهم من فوق أكتافهم ذات اليمين وذات الشمال ...

خرج أبو بكر لحرب المحدقين بالمدينة ...

وانتصر ايمان أبى بكر وحبه الفذ ... على هؤلاء المحدقين به .. يتحدثون فى أمر حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام ..

وردهم مدحورين — عن محمد الحبيب بما لتلك الكلمة من معنى فذ فى وجدان ذلك المحب الفذ ..

« وهكذا كان أبو بكر نمطا وحده فى ولائه لمحمد لأنه ولاء استوعب نفسه كلها ولم يترك فيها بقية للتفكير فى شىء ذى بال .. انه استيعاب ، أو هو ان شئنا التعبير بلغة بعض المحدثين ... استقطاب ..

وفى ذلك الاستيعاب أو الاستقطاب نجد تفسير كل سلوك أبى بكر بعد اعتناقه الاسلام اعتناقا أشبه ما يكون بالاقتحام .

الشهيد المغترب
جعفر بن أبى طالب

الشــهيد المغترب :

اشتد ايذاء المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على دين الاسلام واستفحل العداء بهم •• ولم يخفف من غلواء هذا الايذاء الذى يصبونه على المسلمين • أن من بينهم أقرباء لهم ومن بطونهم ، وسادة بينهم ، وأصحاب جاه وثراء مثل أبى بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وجعفر بن أبى طالب وغيرهم من أمثالهم كثير آمنوا بالاسلام دينا قيما يتسامى بجلال الله الى الوحدانية والتفرد ويرتفع بعقل الانسان عن مزالق الشرك — وعبادة الأوثان ويقوم المعوج من أخلاق الناس ويصلح ما فسد واختل من نظام حياتهم وينشر عليهم ظلال العــدل والرحمة والمحبة والســلام •

لم تقلل وشيجة النسب أو القرابة ولا مظاهر الجاه والثراء ولا شرف الموقع فى المجتمع ••• لم يقلل ذلك من غلواء الحقد والايذاء ••

بل اشتعلت قلوب المشركين غيظا وسخطا فأوغلوا فى هؤلاء المؤمنين بطشا وتنكيلا وصبوا عليهم ضراما وعذابا وبيلا ••

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى هذا فيملؤه الأسى والحزن ويرثى لهؤلاء الصحابة الكرام ويدعوهم الى الصبر والمغالبة وظل الأمر كذلك حتى اذا ما اشتد الأمر عليهم وابتعد

الأمن عن حياتهم بين هؤلاء القوم ذوى العصبية العارمة وحل محله الخوف المقيم فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا الى الحبشة فرارا بأنفسهم وبدينهم والله معهم حيثما كانوا واينما رحلوا .. فهاجروا وبقى صلى الله عليه وسلم فى مكة .

***

وكان هؤلاء المهاجرون الى الحبشة قرابة المائة غير ما صحبهم من نساء وأطفال خرجوا من مكة لو اذا فى غفلة من قريش يتوارون منهم خلف استار الظلمة مخلفين وراءهم الدور والمتاع والأموال والأهل والعشيرة ومواطن المشاعر والذكريات .. وكل ذلك فى سبيل دين الله .

وكان من بين هؤلاء المهاجرين جعفر بن أبى طالب .. فمن هو جعفر ؟؟

هو بادىء ذى بدء ابن أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخ لعلى كرم الله وجهه وأمه هى فاطمة بنت أسد ابن هاشم .. ولما مات عبد المطلب جده وجد الرسول صلى الله عليه وسلم — وسيد مكة وزعيم قريش — ترك لابنه أبى طالب والد جعفر — عبئا كان يحمله عنه وهو تربية أبنائه الكثيرين .. فزاد العبء على أبى طالب :

أبناء كثيرون وضيق فى العيش .. فاتفق النبى صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس — وكان موسرا — على أن يأخذ كل منهما ولدا من أولاد أبى طالب يتولى تربيته والانفاق عليه

وذلك تخفيفا عن أبى طالب — فدخل على فى كفالة ابن عمه رسول الله كما دخل جعفر فى كفالة عمه العباس بن عبد المطلب .

***

أسلمت أمه .. فكانت الحادية عشرة فى الاسلام — ولما نزلت آية مبايعة الرسول للنساء فكانت هى أول امرأة بايعت — ولما ماتت دفنها الرسول بالروحاء وألبسها قميصه وصلى عليها ونزل لحدها واضطجع فى قبرها وأحسن الثناء عليها فقالوا :

يا رسول الله ما رأيناك صنعت بأحد مثل ما صنعت بها فقال عليه الصلاة والسلام :

انه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبر بى منها .. انى انما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة واضطجعت معها فى قبرها ليهون عليها .

***

أما جعفر فقد أسلم وهو دون العشرين من عمره . أسلم ولما تزل الدعوة سرا فى مركزها الذى اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم .. وأسلمت معه زوجته أسماء بنت عميس فانضم اسماهما الى قائمة الشباب الذين آمنوا بمحمد منذ بدء دعوته وأيدوه وناصروا شريعته وبذلوا فى سبيلها النفس والنفيس ... أولئك الذين كانوا شبابا فى ربيع أعمارهم ثم تركت حواسهم الفنية بروح الاسلامية وبنور الايمان فسعدت أشباحهم بالأرواح الطاهرة

المتطلعة الى ما عند الله أكثر من تطلعها الى زينة الحياة ومتاع الدنيا •• صفت نفوسهم واسترخصوا كل ما فى الحياة من غير دين الله ولاقوا ما لاقوا من عذاب المشركين وتعنتهم وهم فى قمة من السعادة لا تدانى •• وفى قمة من الصبر والمغالبة لا تصل اليها قوة بشر •

وهـذا جعفر بن أبى طالب من بينهم رمز للعزيمة المؤمنـة والنفس الخالصة من كل شىء الا من الله ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

* * *

وجاء أمر الرسول بالانبعاث الى مكان غير مكة خارج حدود قريش ••• ابتعادا عن عذابهم ونأيا عن حقدهم •• وفرارا بدين لا يزال أنصاره قليلين فى وجه الكثرة المشركة الطاغية الباغية •• حتى كان ينبعث عنادهـا للرسول ورسالته من منطق الحقد والمكابرة والتعصب للقبلية كما فى قول أبى جهل :

« تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا — حملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان — قالوا ، منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذا ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » •

هكذا بلغ اضطهاد المشركين للمسلمين أقصى مداه — وشق على النبى صلى الله عليه وسلم أن يصيب أصحابه من العذاب ما يصب عليهم وعز على نفسـه الكريمـة أنه لا يقـدر على أن يمنعهم منه •• فنصح لهم قائلا :

— تفرقوا فى الأرض فان الله سيجمعكم •

فقالوا مستفسرين :

— الى أين يا رسول الله ؟

فقال عليه الصلاة والسلام •

— لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه•

فهاجر الى الحبشة من المسلمين الأوائل فوجان :

الفوج الأول وفيه خمسة عشر رجلا وامرأة وفيهم رقية بنت الرسول وزوجها عثمان بن عفان والزبير بن العوام •

والفوج الثانى كان مكونا من ثلاثة وثمانين رجلا فيهم جعفر ابن أبى طالب وامرأته أسـماء بنت عميس وأبنـاؤه محمـد وعبد الله وعوف •• وكان ذلك فى السـنة الخامسة للبعثـة المحمدية •

* * *

ثم ما لبثوا أن استطابوا بلاد الحبشة •• وتوافرت الأخبار الى مكة أن هؤلاء القوم الذين فضـلوا الهجرة والغربة وترك الأهل والأموال والأولاد فى سبيل الله ••• هؤلاء القوم قـد طابت لهم أرض وطئوها ولاذوا بها فوجدوا فيها مقاما طيبا •• ودارا آمنة •• وملكا متسامحا •

لا يظلم — فعلا — عنده أحـد •

* * *

كانت قريش — لما أفاقت على هجرة هؤلاء — تأمل أن تثنيهم الغربة عن البقاء هناك فيعودون ليتجدد تعذيبهم وايجاعهم والتشفى فيهم فتكون الفرصة قد سنحت لاخماد ذلك النور الذى يشرق من رسالتهم التى هاجروا من أجلها وتركوا وراءهم كل شيء دونها

ولكن ها هى الأخبار غير ما كانت تأمل قريش ... طاب للمهاجرين مقام فى الحبشة — يقيمون أنفسهم على الدين الذى هاجروا من أجله — هال قريشا أن يخرج من بين أيديهم النور الذى حبسوه ليظهر فى الحبشة بعيدا عن اضطهادهم وأحقادهم — ثم ينتقل منها الى غيرها فيصبح أمر محمد وصحبه ورسالته أمرا عظيما فى القبائل العربية ثم يمتد الى أقطار الأرض ويعلو بذلك شأن بنى عبد مناف فى الأرومة العربية وان هذا لتكرهه قريش أشد أنواع الكراهية تشبثا بالكبرياء وتعلقا بالعصبية.

جن جنونها لذلك ولابد لها أن تفعل شيئا فالأمر يهددها — بل وهى تخشى أن يأتى وقت قريب ويطبق عليها فيقوضها من أركانها .. فاختارت اثنين من دهاتها هما عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص لكى يفاوضا النجاشى ملك الحبشة فى أمر استعادة هؤلاء المهاجرين وليفسد ما بينه وبينهم من مودة وحماية جوار حتى يلفظهم من أرضه فيعودوا الى قبضة الكفار فى قريش .

وزودت قريش هذين الرسولين بهدايا مما هو مستطاب من أسواق مكة لدى النجاشى وبطارقته .

وبدأ الوافدان من قريش ببطارقة النجاشى وأعطياهم هدايا فقبل كل بطريق هديته .

ووعد بالمعاونة فى الأمر عند اللقاء مع النجاشى .

ثم تقدم عمرو وعبد الله الى النجاشى ووضعا هديته بين يديه وقالا له :

— أيها الملك — انه قد ضوى الى بلدك غلمان من سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت — وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من أبنائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردوهم اليهم ... فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

فالتفت النجاشى الى البطارقة فرأى منهم تأييدا لقول الوافدين القرشيين ونصيحة بأن يسلمهما المهاجرين : —

صدقا أيها الملك .. قومهم أعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم، اليهما فيرداهم الى بلادهم وقومهم .

ولكن النجاشى بحاسة العدل فى قلبه والحكمة فى تصرفه أبى الا أن يقابل هؤلاء الناس الذين يجد قومهم فى استعادتهم ويسمع رأيهم وينظر فى أمرهم على ضوء ما يرى منهم وما يسمع — وأمر باستدعاء رجال منهم .. فجاءوا وبينهم جعفر بن أبى طالب متحدثا باسمهم ومدافعا عن قضيتهم .

فسئل :

من القادم ؟

أجاب فى ثبات :

ـ جعفر بن أبى طالب ومعه حزب الله

ولما صار أمام النجاشى لم يسجد له مثلما يفعل قومه •

فقال له أحد البطارقة المحيطين بالملك :

ـ مالك لا تسجد لمليكنا العظيم •

فقال جعفر :

معاذ الله أن نفعل ذلك •• انا لا نسجد الا لله عز وجل•

وبدأ النجاشى أسئلته فقال :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فأجاب جعفر قائلا :

ـ أيها الملك •• كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الارحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده

نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه آمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده لم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا عدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا ـ ليردونا الى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ـ ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك •

فسأله النجاشى :

ـ هل معك مما جاء به عن الله من شىء فتقرأه على ؟

فقرأ جعفر بن أبى طالب من أول سورة مريم حتى وصل الى « وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » •

فتأثر النجاشى لما سمع من آيات الله البينات وبكى حتى أغرق الدمع لحيته وتوجه بالحديث الى وافدى قريش قائلا :

ـ ان هذا الذى سمعته والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة •• انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون » •

ثم سأل :

ماذا تقولون فى عيسى بن مريم :

فأجاب جعفر :

نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التى ألقاها الى مريم العذراء البتول •

فابتسم النجاشى الى المهاجرين اللائذين بأرضه وقال لهم :

— اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى من سبكم غرم وما أحب أن لى جبلا من ذهب وانى آذيت رجلا منكم —

وقال لمن حوله من قومه :

— ردوا عليهما (عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة) هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى رشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه •

* * *

وعادت رسالة قريش الى النجاشى دون أن تظفر بما أرادت قريش •• وبقى المهاجرون فى الحبشة ينعمون هناك بالعيش الرضى ويقيمون شعائرهم فى أمن وسلام يذكرون ربهم قياما وقعودا ولكنهم يتحرقون شوقا الى لقاء نبيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم والدعوة هناك فى مكة يزيد أنصارها ويتكاثر المؤمنون بها يوما بعد يوم وتجتذب من كبار القوم رجالا ورجالا والحرب بينها وبين المشركين لا تهدأ وتتعدد أشكالها وألوان عذابها وفى تلك الأثناء فى السنة العاشرة من البعثة المحمدية مات أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ووالد جعفر فحزن جعفر فى مهجره كما حزن النبى لموت عمه وكافله حزنا

جديدا — وعادت معارك اضطهاد المشركين للمسلمين الى أشد ما كانت عليه •

ورأى النبى أن الموقف يزداد ألما وأسى ولا يمكن أن يستمر هكذا ولابد أن يأخذ مسارا آخر فراح يمد بصره الى ما وراء مكة يستوعب أبعاد المناطق التى يحتمل أن تتجه الأحداث اليها •

حتى جاء الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة •

وكان ذلك مبعثا جديدا للدعوة ومولدا لانتشارها بين ربوع الأرض •

كل ذلك وجعفر مقيم مع المهاجرين فى الحبشة حتى يأمرهم الرسول بالعودة ولم يهدأ شعورهم الجارف تجاه أرضهم ولقاء نبيهم ولم تنقطع صلتهم بالمصطفى حتى انه صلى الله عليه وسلم بعث الرسل الى جعفر فى الحبشة ليخطب له «رملة» التى أسلمت وكانت فى وفد مهاجرى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش — ثم ما لبث أن ارتد عن اسلامه وبقيت هى هناك على اسلامها وغربتها فشرفها الرسول بأن خطبها وهى فى المهجر الى أن عادت اليه فى المدينة مع جعفر بن أبى طالب •

عاد أفراد قليلون منهم ولحقوا بالرسول فى المدينة ثم طلب الرسول عودة كل المهاجرين •

* * *

كانت السنة السابعة من الهجرة وفى مستهلها — بدأت مسيرة المصطفى الى يهود خيبر الذين سارعوا الى حصونهم يحتمون

بها فتساقطت حصنا بعد حصن حتى أجلاهم جيش النبى عن خيبر ليهيموا على وجوههم فى الفلاة .

وفى هذه الفترة عاد من الحبشة جعفر بن أبى طالب والمهاجرون الذين كانوا معه وذهبوا الى المدينة وكان الرسول فى طريق عودته بعد انتصاره فى خيبر فاستقبله جعفر بفرح بالغ طاغ وما أشد فرح الرسول أيضا بعودة لجعفر فعانقه وقبل ما بين عينيه وقال له :

أشبهت خلقى وخلقى .

فكاد جعفر يطير فرحا بتكريم الرسول له ثم قال النبى معبرا عن فرحه وسروره برجوع جعفر .

— ما أدرى بأيهما أنا أسر — أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر .

أقام جعفر فى المدينة حتى أول السنة الثامنة من الهجرة فأعد الرسول صلى الله عليه وسلم سرية من المؤمنين قوامها ثلاثة آلاف من المؤمنين لتأديب الروم الذين قتلوا مبعوث النبى الى ملك بصرى ...

تجهزت السرية المؤمنة واستعدت للمسير فى طريق الجهاد من أجل تثبيت الدعوة الاسلامية وتقوية دعائمها وارساء قوائمها فى كل مكان وتلك كانت الصفة الغالبة بل الوحيدة فى جميع المسلمين الأوائل لا يختلف فى ذلك رجل عن امرأة ولا شاب عن

شيخ . لذلك كانت مشاعر أفراد هذه السرية واحدة غير مختلفة .. هى النصر أو الاستشهاد .

وما غير ذلك عندهم من هدف .

بارك الرسول صلى الله عليه وسلم أفراد السرية وقال لهم:

— أمير القوم زيد بن حارثة — فان قتل فجعفر بن أبى طالب فان قتل فعبد الله بن رواحة فان قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم .

وعقد لهم لواء أبيض وسلمه للأمير زيد بن حارثة . ومشى صلى الله عليه وسلم معهم يودعهم حتى بلغ ثنية الوداع ثم نصحهم بأن يستعينوا بالله فى جهادهم وأوصاهم بالحرص على آداب الحرب فى الاسلام حتى يكونوا فيها شرفاء نبلاء فنهاهم أن يقتلوا النساء أو الأطفال أو المكفوفين وأمرهم ألا يهدموا المنازل وألا يقطعوا الأشجار وترددت دعوات المسلمين المودعين للجيش قائلين :

— دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين .

والتقى الفئتان عند « مؤتة » على حدود الشام وكان جيش العدو كثير العدد والعدة ولكن المعركة بدأت .. وقتل زيد بن حارثة بعد أن جاهد جهادا خالدا . فسارع جعفر بن أبى طالب وتناول لواء القيادة — وأخذ يحارب فى بسالة وشجاعة لا مثال لهما ويصب على الكفار ضرباته القاتلة فى اقدام خارق وهو ينادى نفسه المؤمنة :

يا حبـذا الجنـــة واقترابهـا
طيبـــة وبــارد شرابهـــا
والروم روم قــد دنا عذابهـا
كافــرة بعيـــدة أنسـابهـا
على أن لاقيتهـــا ضرابهـــا

ورآته جموع الروم على هذه الشدة الرائعة والشجاعة النادرة والايمان المستبسل فىسبيل نصر الله ــ فحسبوه وحده جيشا كاملا يهزمهم ويبيد رجالهم ويطوح برقابهم بضربة سيفه الباتر فبدأوا يشدون عليه فى جمع منهم كبير ــ فرأى فى مواجهة هذا الحشد أن فرسه تعطل حركته فنزل عنها وراح يصوب سيفه فى صدور أعدائه ثم شاهد أحدهم يقترب من فرسه محاولا ركوبها فعقرها جعفر اذ عز عليه أن يركبها عدو الله ــ واشــتد عليه الحصـار الكافر وزادت فى جسمه الطعنـات واذا بضربة تقطع يمينه ــ فتناول اللواء بشماله فتكاثر العدو من حوله حتى قطعت شماله أيضا ــ فاحتضن راية الرسول بعضديه وكله العزم والتصميم ألا يدعها تسقط أو تلامس الأرض حتى جـاءته ضربة شـطرته نصفين ــ ولحق بالرفيق الأعلى ــ وهو فى الثالثة والثلاثين شهيدا على طريق الدعوة بعد أن عاش زهرة عمره مغتربا فى سبيلها .

وقال عبد الله بن عمر :

التمسنا جعفر بن أبى طالب فى القتلى فوجدناه ووجـدنا فى جسده بضعا وتسعين ضربة ورمية ليس منها شىء فى ظهره .

* * *

كان فى ربيع العمر عندما استشهد فحزن له الناس واشتد عليه البكاء ثلاثة أيام حتى قال الرسول :

ــ لا تبكوا على أخى بعد اليوم .

ثم أحضر أبناءه ولاطفهم وسرى عنهم حزنهم بفقـد أبيهم ودعا لهم قائلا :

ــ اللهم أخلف جعفرا فى أهله .

وأخبر الرســول قومه بأن الله أبدل جعفرا من يديه اللتـين قطعتا فى حرب المشركين فى مؤته جناحين يطير بهما فى الجنة .

* * *

هذا هو جعفر بن أبى طالب مثل ما أسماه وأعلاه للشـباب المؤمن بقضيته وقوميته وعروبته وقدوة ما أحسنها للجهـاد والتضحية فى سبيل النصر لدين الله وكرامة أمته .

جعفر بن أبى طالب المجاهد المغترب المحتسب ... الصابر .. الشهيد الثابت على الحق دفاعا عنه وزودا عن حياضه .. لم يفتخر بنسب أو حسب رغم أنهما له فهو من أرومة قريش بنى عبد مناف ... ومع ذلك ازدانت سيرته بأعمال مجيدة خـالدة وتضحيات فى سبيل الله قل مثلها ... وألقـاب كريمة ومحبـة عظيمة طوقه بهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال :

ــ أعطيت رفقاء نجبـاء

وذكر من بينهم جعفر بن أبى طالب .

فسلام عليه مع الصـديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقـا .

بيت الحزني

[illegible]

زيد بن حارثة :

فى السنة السادسة للهجرة أرسل النبى صلى الله عليه وسلم « الحارث بن عمير الأزدى » بكتاب منه الى أمير بصرى من جهة « هرقل » يدعوه فيه الى الاسلام .. فلما بلغ الحارث قرية على مشارف الشام يقال لها « مؤته » قابله « شرحبيل ابن عمرو الغسانى » وهو أحد أمراء قيصر الروم على عرب الشام فقال له :

ـ أين تريد ؟

قال الحارث : أريد الشام .

قال الغسانى : لعلك من رسل محمد .

قال الحارث : نعم .

فأمر به شرحبيل فأوثق ثم ضرب عنقه .

ولما علم النبى صلى الله عليه وسلم حزن على قتله أشد الحزن وقرر أن ينتقم له .

* * *

وبعد سنتين من ذلك الحادث جهز النبى جيشا قوامه ثلاثة آلاف مجاهد لتأديب الغسانى الغادر وقومه وجعل رياسة هذا الجيش لزيد بن حارثة .. فان قتل فجعفر بن أبى طالب ، فان قتل فعبد الله بن رواحة .. وكان اللقاء فى « مؤتة » .

وموضوع هذه الكلمة هو أول قواد المسلمين فى معركة «مؤتة» وهو زيد بن حارثة فقد كان على مدى أيامه فى الحياة الدنيا بطلا من أبطال الجهاد فى سبيل دعوة الحق فهو من الرعيل الأول الذى ناصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق به واعتنق دعوته اذ أن « زيدا » كان رابع من أسلم غير أننا لو قسمنا المصدقين بالرسول فى أول الأمر الى فئات لكان زيد أول من أسلم من الموالى •• كما كانت خديجة أول من أسلم من النساء وأبو بكر أول من أسلم من سادة مكة وعلى بن أبى طالب أول من أسلم من شبابها ••

ولقد نال زيد منزلة رفيعة من منازل التكريم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقول له « أنت أخونا ومولانا » ويقول أيضا « يا زيد أنت مولاى ومنى والى وأحب الناس الى •• وكان زيد يوصف بأنه « حب رسول الله » أى حبيبه ••

من هو زيد ؟ انه أبو أسامة زيد بن حارثة بن شراحل الكعبى القرشى ذهبت أمه به وهو صبى لزيارة قومها من طيىء فأغار على الحى نفر من بنى القين وأخذوا زيدا من بين ما أخذوا من الصبية وباعوه بمكة فاشتراه حكيم بن خزام لعمته السيدة خديجة بنت خويلد وظل فى خدمتها الى أن تزوجها الرسول الكريم فوهبته له « زيدا » فأعتقه وكان عمره حينئذ حوالى العاشرة وذلك قبل النبوة •

واتفق أن رآه ناس من أرض أسرته فعرفوه وعرفهم فدلوا أهله على مكانه فجاء أخوه جبلة بن حارثة الى النبى وقال له •

— ابعث معى أخى زيدا ••

فأجابه الرسول : هو ذا فان انطلق معك لم أمنعه ••

وهنا قال زيد للرسول ••• والله لا أختار عليك أحدا •

فعاد جبلة الى أبيه وحده دون زيد •• فجاء الأب والعم الى مكة ودخلا على رسول الله بالمسجد وقالا له :

— يا ابن عبد المطلب •• يا ابن سيد قومه •• انتم أهل حرم الله تفكون العانى وتطعمون الأسير •• جئناك فى ولدنا زيد عبدك فامنن علينا وأحسن فى فدائه ••

قال الرسول : وماذاك •

قالوا : زيد بن حارثة نريد شراءه ••

قال : أو غير ذلك •• ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى فداء •

قالوا : لقد زدتنا على النصف •

وأقبل زيد فسأله الرسول : هل تعرف هؤلاء ؟

قال زيد : نعم هذا أبى وهذا عمى •

قال الرسول : فأنا من علمت وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما •

قال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا •• أنت منى بمكان الأب والعم •

فقال الأب والعم لزيد : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

قال زيد : نعم •• انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا •

فلما آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقه وتبناه وذهب به الى مجلس قريش بالمسجد فقال : اشهـدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه » •

وسر والد زيد وعمه لذلك وطابت نفساهما وانصرفا عائدين الى بلادهما وظل زيد يدعى « زيد بن محمد » حتى جاء الاسلام ونزل قول الله تعالى « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » (الأحزاب ٥) لما نزلت تلك الآية عاد اسم زيد مقرونا باسم أبيه حارثة•

وكان زيد رجلا شديد المراس شجاع القلب ثابت الجنان قوى الشكيمة فى الحرب قوى الايمان صادقه •• يمتاز بهمة مثلى ونفس قوية محبة لله ورسـوله وقلب تضيئه أنوار التوحيد ويملكه حب الجهـاد فى سبيل الله فكان من خيـار المجـاهدين الصادقين ومن الرماة المعدودين لمهارتهم وبراعتهم •

وكل ذلك أهله لانتداب الرسول له فى مهـام تأديب الكفـار والمشركين ••• أعداء الله ورسوله •• فكان دائما يبعثه الرسول فى سرايا بغرض تأديب المشركين والانتقـام منهم لايذائهـم المسلمين حتى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها «مابعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سرية الا أمره عليهم وكان ذلك كثيرا فما كان يعود من سرية حتى يتجهز لأخرى » وفى كلذلك هو القائد المظفر والفارس الذىينعقد له لواءالنصر•

ولقد اتفق له كما أوردت كتب السيرة •• أنه رأس ست سرايا حقق فيها الكثير من الأعمال الفدائية والبطولية الرائعة •• وعاد منها جميعا منتصرا على أعداء الاسلام وقد شتت جموعهم وأسر رجالهم وغنم أموالهم ••

ومن سيرته العطرة فى السرايا التى قادها أن أرسله الرسول صـلى الله عليـه وسلم فى سرية الى « وادى القرى » وكان الاشتباك عنيفا بينه وبين المشركين فاستشهد بعض المجاهدين من رجال زيد أما هو فأصيب بجراح كثيرة فاضطر هو ورجاله الى الانتظار بضعة أيام حتى تلتئم جراحه وجراح رجاله ••• وقد أقسم أنه لن يمس رأسه غسل جنابه حتى ينتقم من المشركين أعداء الله ••• ولمـا التأمت الجراح سارع مع رفاقه المجاهدين الى أرض المعركة يستترون نهارا ويسيرون ليـلا حتى فاجئوا أعداءهم وباغتوهم مباغتة شلت حركتهم فانتصروا عليهم وأخذوا الثأر منهم وكان من المشركين فى هذه المعركة امرأة لعينة تسب النبى صلى الله عليه وسلم وجهزت بالسلاح ثلاثين مشركا لغزو المدينة وقتل النبى ولكنها وقعت فى أيدى المسلمين فقتلوها ••

❋ ❋ ❋

ولـما عاد زيد منتصرا من هذه السرية فى « وادى القرى » ذهب الى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره بما أجراه الله على يديه من انتصار لكلمة الله فلما دق الباب وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم صوت زيد سارع اليه من الداخل وهو فى ثياب البيت وعانقه وقبله تكريما له وتقديرا لجهاده ••

❋ ❋ ❋

وجاءت السنة الثامنة للهجرة وبالتحديد شهر جمادى الأولى وجهز الرسول الكريم جيشـا ينفذ به عزمه على الانتقـام من شرحبيل الغسانى الغادر الآثم الذى خرج على عادات العرب وتقاليدهم الكريمة من تأمين الرسل والمحافظة عليهم من الغـدر والقتل وكان تتابع الحوادث قد شغل الرسول عن تنفيذه منـذ السنة السادسة للهجرة حيث قتل الحارث بن عمير الأزدى الذى كان يحمل كتاب النبى الى أمير بصرى •

واختار الرسول زيدا ليكون القائد الأول للجيش الذى سـار لغزوة « مؤتة » كوصية الرسول •• ليدعو من هناك الى الاسلام فان استجاب الأعداء والا استعان عليهم زيد وجيشه بالله تبارك وتعالى وقاتلهم •

وخرج الرسول الكريم مودعا لهم حتى ثنية الوداع فوقف وقال : —

« اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيهـا رجـالا بالصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهـم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا شيخا فانيا ولا تهدموا بنـاء » •

وبكى عبد الله بن رواحة وهو القائد الثانى الذى رشحـه الرسول خلفا لزيد اذا ما أصيب فقيل له : —

— ما يبكيك •

فأجاب عبد الله :

أما والله ما بى حب الدنيـا ولا صبابة بكم ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر

فيهـا النار وهى « وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلم أدر كيف لى بالصدور بعد الورود •

فقال المسلمون :

صحبكم الله ودفع عنكم وردكم الينا صالحين •

لكننى أسـأل الرحمـن مغفـرة
وضـربة ذات فرغ تقـذف الزبدا

أو طعنـة بيـدى حـران مجهزة
بحـربة تنفـذ الأحشـاء والـكبدا

حتى يقـال اذا مروا على جسـدى
يا أرشـد الله من غـاز وقـد رشدا

وسار جيش المجاهدين بقيادة زيد بن حارثة حتى أتى معان حيث نمى الى علمهم ان الروم قد جمعـوا لهم جيشا عـدته مائة ألف وخلفه جيش من العرب المنتصرة يبلغ عدده خمسين ألف مقاتل •

* * *

ولما تأكدت هذه الأنباء لدى المسلمين أخذوا يتبادلون الرأى فيما يفعلون ويتشاورون هل يلتحمون مع العدو رغم كثـرة عدده وقلة عددهم وبعدهم الشاسع عن المدينة مركز امدادهم وقالوا فيما قالوا : نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا فاما أن يمدنا بالرجال واما أن يأمرنا بأمره فنمضى لـه •

فانبرى عبد الله بن رواحة مسرعا وحسم الخلاف وجمع الناس على الرأى ودعا الى الاقدام أو التضحية وقال •

« يا قوم والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الا وهى الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة وما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا به فانطلقوا فانما هى احدى الحسنيين : اما ظهور واما شهادة : « واطمأن المجاهدون الى كلمات ابن رواحة التى نزلت على نفوسهم بردا وسلاما .. فقد لمست فى قلوبهم شعلة النضال والجهاد المنفذة فى قلوبهم والتى وضعوا فيها حياتهم وأرواحهم فداء لكلمة الله وقالوا: صدق ابن رواحة .

وقاتل بهم زيد فى معركة غير متكافئة . .

فكان دفعهم للعدو نموذجا من أروع نماذج الاقدام أو البذل والتضحية . حتى استشهد زيد بعد جراح كثيرة مدمية .

وكان استشهاده صورة للبطولة أخاذة الروعة « قاتل زيد براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط فى رماح القوم .. وكان عمره حينئذ خمسا وخمسين سنة وأبلغ نبأ استشهاده للنبى صلى الله عليه وسلم فى نفس اليوم فاطلع عليه الصحابة وعيناه تذرفان الدموع وهو يقول « أخذ الراية زيد بن حارثة » فقاتل بها حتى قتل شهيدا « وقال اللهم اغفر لزيد وكررها ثلاثة » .

واستقبل النبى صلى الله عليه وسلم أسرة زيد فرأى بنتا له تبكى فبكى لبكائها فقال له سعد بن عبادة رئيس الخزرج .

— يا رسول الله ما هذا ؟

— فقال الرسول :

هذا شوق الحبيب الى الحبيب ، وانما هى عبرات الصديق يفقد صديقه .

* * *

وباستشهاد زيد .. انتهت حياة عمله لتبدأ ذكراه العطرة على مدى الاجيال تبث فى النفس روعة التضحية وصدق الايمان وبذل النفس وجلال الاستشهاد فى سبيل الله جلت حكمته وعلت كلمته .

المُضِيفُ الأوَّل

خَالدُ بْنُ زيد

الضيف الأول :

كانت الأرض تهتز تحت أقدام البشر .

فى مكــة ....

وفى المدينة ...

وهما فى ذلك الوقت من أوائل البعثة المحمدية ... فهما كل الجزيرة العــربية ... بهما تتعلق الآمال ... واليهما تشــد الرحال ... والى تجارتهما وتجارهما وعظمائهما تهفو النفوس وتمتد الأيدى ...... بيعا وشراء واحتراما وتعظيما ...

فى مكة .... وفى المدينة .... كانت الأرض تهتــز تحت أقــدام البشر ... فى مكة ... ألما وندما وتأنيبــا ... ثم بحثا وتنقيبا ورغبة فى سفك الدماء ....

أما فى المدينة ... فسعادة واشراقا وترحيبا ... ورغبــة تملأ الجوانح بل وشوقا ملك النفوس الى النصر ... والذود والدفاع عن أسمى قضية ... شرف الانسان بالدفاع عنها منذ مولد الحياة ... الى يوم ان يلقى الله ... امــا الى جنة عرضها السموات والأرض ... واما الى نــار جهنم وبئس القرار ....

فى مكة ... فى الليلة السابقة لذلك اليوم ...

تجمهر كفار مكة ••• واختارت كل قبيلة نائبا عنها ••••
وأحاطوا بدار الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام
•••• فى انتظار أغماضة الدنيا فى ظلام الليل •••• حتى
يقتلوه كلهم بضربة رجل واحد ••• أرادوا ان يضيعوا
دمه ••

لكن الله لم يضيعه ••• حفظه ورعاه « واذ يمكر بك
الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر
الله والله خير الماكرين » وخرج محمد عليه الصلاة والسلام
وقد عميت عيونهم فلم يلحظوه •• وغشيت الغفلة حواسهم
فلم يشعروا به •••

وانطلق هو والصديق أبو بكر •• يشقان الطريق وسط
الفيافى والمخاطر نحو موطن النصر ••• نحو المدينة •••

وهناك فى الطرف الآخر ••• فى المدينة ••• كانت الأرض
تهتز من تحت أقدام القوم ••• تطلعا وانتظارا لطلعة
النبى ••• وشوقا جارفا الى المثول بين يديه •••• ترحيبا
وتعاهدا على نصرته والوقوف بالروح وبالمال وبالنفس من
أجل انتصار دعوته •

وأهل الركب الميمون ••••

أشرقت شمس الحياة على الكون ••• وكأنما لم ير
القوم شمسا قبلها ••• ولم يظهر أمام عيونهم قمر مثله ••••
ان الشمس والقمر •• كلاهما من نور محمد العظيم الذى
اقتربت خطوات ناقته — وهى تحمله — من المدينة — وقد
أشرق نور الاسلام فى قلوب عديد من رجالها ونسائها تعاهدوا
مع النبى فى بيعتين سابقتين فى مكة على نصرته وحمايته •

أهل الركب الميمون ••• وقد أضاءت الدنيا على الناس كما
لم يكن من قبل ضياء •• والناس هناك فى المدينة ••••
والشجر ••• وتراب الأرض •••• وذرا النخيل وأصوات
الملائكة وأصوات البشر •• بل الحياة بأسرها لم يكن لها
من عمل •••• ولم يكن لها من حديث ••• الا ان تستقبل
هذا الركب المضىء لأركان الدنيا ••• تستقبله هاتفة من
أعمق الأعماق •••

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع

***

أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع

***

وطئت القصواء أرض المدينة ••

والناس يتزاحمون من حولها ويتراصون من أمامها
ومن خلفها وقلوبهم قد طار بها الفرح •••• وأجسادهم
قد علا بها السرور من فوق الأرض ••• ونفوسهم زاد
الضوء المحمدى صفاءها وشفافيتها ••

وامتدت الأيدى تمسك خطام « القصواء » •

واشرأبت الأعناق تهتف بمحمد خير رسول وخير انسان
على وجه البسيطة •••

كل من فى الجمع يرجو أن يكون لـه الشرف ••• شرف الضيافة والايـواء شرف الصـحبة فى منزله ••• شرف أن يكون فى خدمة سيد المرسـلين وملب اشارته •••• ومطيـع بنانه ••• انه شرف تطيح لـه الرقاب ••• وتهفو له النفوس •• وتهتز له الجوانح •••

انه العمل ••• امل العمر كله ••• يتدافع الناس من أجـل تحقيقه ••• ويتهافتون على وسيلته •• ويتزاحمـون فى كل طريق كى ينالوه ••• لكن ••• فى الغيب أشياء لا يعلمها أحد الا الله الذى خلق الـكون وسيره بارادته القاهرة فـوق كل ارادة وسط هذه الجموع الفـرحة المستبشرة ••• تشـق القصواء طريقها والناس على الجانبين يقولون لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ••

ـ يا رسول الله •••• ادخل المدينة راشدا مهديا ••

وكل واحد على باب بيته يرجو من الرسول ان تنثنى ناقته الى داره ويقول •• وهـو يتمنى من أعمـاقه ان تكون لـه وسـيلة تعبير غير القول •••

ـ ها هنا يا رسول الله •• هاهنا يا رسول الله •

ويرد الرسول على هذا البشر المتبدى على الوجوه والترحيب الذى يبدو على الانصار فى كل شىء ••• فى الحركات •••• فى الأناشيد •••• فى الكلمات ••• على وجوه الشبان •••• على وجوه الشابات وقد اعتلين أسطح المنازل • يرد الرسول العظيم على ذلك ويقول فى لطف طباعه ورقـة نفسه ، وعظيم خلقـه •••• يقول لهم وهو يشير الى الناقة •••

ـ خلوا سبيلها ••• فانها مأمورة ••

حتى عند منازل أخـواله « بنى النجار » عندمـا تعلقـوا بخطامها ورجوا ان يكون الرسول فى رعايتهم فهم أهل لـه وهو منهم ••• أرادوا ان ينزل هذا الشرف بديارهم •••

فأخذوا يعزفون على وتر الحمـاية التى يطلبها الرسـول لدعوته تلك الحماية التى من أجلها هاجر من مكة الى المدينة ••• من مكة حيث الـكفر المستبد والايذاء المستمر والتحدى السـافر من كفار قريش لدعوته •••• الذى وصل فى النهاية الى اجتماعهم وائتمارهم من حول داره فى بهمة الليل ليقتلوه ويهدروا دمه قبل ينجو منهم بسـاعات قـلائل •••• الى المدينة حيث تعاهد قوم من رجالها على منعته وحمايته وبايعوه على حـرب الأحمر والأسود من الناس فى سبيل الرسـالة الخالدة •••• وحيث هناك قرابة الام بما فيهـا من رأفـة ورحمة وتعاطف ••• انهم فى نظر أنفسهم أحـق النـاس باستضافة الرسول والدفاع عنه ••••• فقالوا له ••

ـ يا رسول الله ••• هلم الى اخوالك ••• أقم عندنـا فلدينا العـدد والعدة والمنعـة •••

ولكنه ••• عند هؤلاء أيضا ••• ترك لناقته الزمام •••• ولم يثن عنقها ناحيتهم كما أرادوا ••• بل كمـا تمنـوا من أعماقهم ـ فذلك شرف لا يدانيه شرف ـ •• تركهـا تسـير حيث يقض لها الله فقد توجه اليه وابتهل ••

اللهم خر لى واخترلى •••

وقال لهم فى وداعته وتلطفه .

ــ خلوا سبيلها .. فانها مأمورة ...

والناقة تسير الى حيث أمرها الله أن تقف ....

وقفت أمام دار واحد من الذين بايعوا محمد صلى الله عليه وسلم ... بل وحظى بالبيعتين ... أناخت هناك على باب أبى أيوب الانصارى ... من الذين نزل فيهم قول الله سبحانه وتعالى « والسابقون السابقون أولئك المقربون » ..

* * *

من هــو ..... ؟

انه السعيد الموعود خالد بن زيد النجارى ... عليه رضوان الله ..

التقى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مكة وبايعه مع نفر من المدينة ... ومن جديد ... ذهب والتقى به فى بيعة العقبة الثانية وعاد الى قومه ينتظر رسول الله عندما تتشرف بحضوره أرض المدينة ..

لا يستطيع انسان مهما بلغ من رقة الخاطر وعمق المشاعر ودقة الاحساس ان يصف سعادة أبى أيوب عندما أناخت القصواء أمام داره ... وأدرك ان الله اختاره من بين كل أهل المدينة .. لتكون داره سكنا لرسوله فى هجرته ومقرا لانبعاث دعوته فى مرحلتها الجديدة التى شكلت منعطفا خطيرا وجليلا فى مسارها ...

لا يستطيع أحد ان يصف ذلك ... ومن منا كان له حظ حضور ذلك المشهد الرهيب الجليل ... من مشاعر السعادة الغامرة والفرح الطاغى ... لا يعرف الشوق الا من يكابده .... مد الرجل ذراعيه وكل ما فيه يسجد لله شكرا وامتنانا ... واخذ بحبل الناقة يمسح به وجهه ويقبله ويغمره بدموع الفرح وقد سالت على الخدين منهمرة ... وحمل الرحل الى داخل الدار ثم دعا الرسول الى الدخول ... وكل لمسة فى جسده وكل نبضة فى قلبه ... وكل همسة فى وجدانه تقول .... شرفت يا رسول الله ... شرفت بيتى بقبولك دعوتى ... وشرفت المدينة باختيارك لها حصنا وموطنا وشرفت الدنيا برسالتك من عند الله الى خلقه ...

تبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى داخل الدار يحف به اليمن وتشرق من بسمته الأضواء وتعم لخطواته البركات ...

* * *

كانت الدار ... دار أبى أيوب صغيرة .... من حجرتين تعلو كل منهما الأخرى ... من طين اللبن وأمامها نخلتان يقيم فيها هو وزوجته ودخل الرسول الدار ... واختار الحجرة السفلى يقيم فيها كى لا يجشم اضيافه مشقة الصعود الى الحجرة العلوية ...

ولكن لأصحاب محمد خلق رفيع ... هى نماذج عالية غاية ما يكون العلو وسامية غاية ما يكون السمو ... فى حلو الطباع وعظمة الحب وروعة الاخلاص .

أبت على أبى أيوب نفســه أن يكون الوضـع هكذا فدنا من النبى ورجاه أن يصعد الى الحجرة العلوية ويجعلها مقره ومقامه عند هـذا الضيف ••

فأجابه الرسول برأيه :

ـ يا أبا أيوب •• انه ارفق بنا وبمن يغشـانا ان أكون فى سفل البيت ••

ولم يزاول الحرج أبا أيوب •• فكيف يرضى من نفسه أن يكون حبيبه رسول الله مقيما بالحجرة السفلية وهو من أعلى يدوس سقفا يظل نبى الاسلام •

فكان اذا ما حضره النوم •••• أخذ زوجته وناما بجوار الجدار « حتى لا يجعلا نفسهما فى وسط السقف الذى يظل الرســـول •• »

ولم يقنع أبو أيوب بذلك •• فالنبى هو أغلى انسان ولا يمكن ان يكون فى الدنيا من هو فوقه ••• فظل يرجو رســول الله صلى الله عليه وسلم ان يصعد الى الدور العلـوى من داره ••• حتى استجاب له الرسول مقدرا له رقيق مشاعره ونبل أدبه وعميق حبه •••

ومكث النبى فى دار ابى أيوب حتى تم بناء مسجد الرسول فى المدينــة •••• وبنيت بجـواره حجـرة له عليه الصلاة والسلام •• من طين وطوب ليس فيها من متع الفراش ولا ترف الحياة شىء ••• لم يكن فيهـا الا النور الاسمى الذى عم الكون بوجود محمد ••

كانت هجرة النبى الى مكة بدء مرحلة جديدة فى حياة الدعوة الاسلامية ••• وعلمت قريش ذلك •• وأخذت الحرب تدور بشكل أو بآخر بين المسلمين والمشركين ••• والزاد الاول للمسلمين وعـدتهم فى حـربهم حبهم لرسالة السـماء التى جاء بها محمد وفداؤهم له ولهـا بأرواحهم ودمائهم ••••• بأموالهم وأولادهم •• وكل الحروب فى حياة الرسول لـم يتخلف أبو ايوب عن واحدة منها ••• بل يمكن لنـــا ان نقول انه رجل لم يسلم الا ليكون محاربـا فقط من أجـل الدعوة الاسلامية •

غزوات •••• بــدر •••• والحديبية ••• وأحـــد ••• والخندق ••• وغزوات ومشاهد أخرى كلهــا حضرها أبو أيوب مجاهدا تحت راية الرسول ••• ملتزمـا بأوامره بائعا نفسه وكل دنياه لله رب العالمين ••• متفاعلا بكل ذرة فى كيانــه مع توجيه الله سبحانه لمن يجاهدون فى سبيله « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » •••

ومن هذا المنهج ••• ما أكثر ما قال عنه الناس كما قال لنفســه كثيرا •••

ـ لا أجدنى الا خفيفــا أو ثقيلا ••

أى لابد له من الجهاد على أى حال ••• وقد استقى ذلك من معنى الآية « انفروا خفافا وثقالا » اذ ذكر المفسرون فى معناها : « اخرجوا الى الجهـاد عند وجوبه شبابا كنتم أو

شيوخا كثرة كنتم أم قلة ركبانا كنتم ام مشاة موسرين كنتم ام معسرين » ..

نذر أبو أيوب حياته للجهاد منذ أسلم ... وتعاهد ألا يضع سلاحه ولا يثنيه لحظة عن ضرب رقاب الكفار ورد أعداء الحق . أحب الجهاد وعاش له نهاره وليله ... سره وعلانيته وحرص على لقاء الموت فى ساحة الجهاد فى أى لحظة لذلك كانت خطة حياته حديثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا صليت فصل صلاة مودع .. ولا تكلمن بكلام تعتذر منه .. والزم اليأس مما فى أيدى الناس » .

تجردت نفسه من مطالب الحياة ... فقد باعها لله .. وما أربح البيع ...قاتل فى سبيل الله عمره ...لم يتخذ لدنياه.. صناعة الا صناعة الجهاد فى سبيل نشر دعوة الاسلام .... ففاز بحب النبى ... حتى انه صلى الله عليه وسلم كان يسأل عن أبى أيوب كلما غاب عنه ...

***

ضرب أبو أيوب من خلال جهاده فى سبيل الدعوة مثلا من أروع الأمثلة فى ان الجهاد ليس من أجل شخص .. بل من أجل الدعوة التى آمن بها وملأت كل ذرة فى كيانه .. وأصبح كل هدفه من حياته ان ينال شرف الشهادة على أرض جهاده ....

حدث مرة ان خرج جيش المسلمين بقيادة واحد من شباب المسلمين .. ولم يكن ذلك مقنعا لابى أيوب فيخرج معه للقتال تحت امرته ... وتخلف ....

ولكن بعد ذلك ندم أشد الندم وظلت هذه الحادثة تؤرق جفنيه وتضج فى نفسه بالالم وقال لنفسه :

— ما على من استعمل على .

أى أنه يخرج للحرب فى سبيل اسمى مافى الوجود .... رسالة السماء الى البشر أجمعين ... ولم تفته من بعد ذلك موقعة قتال . وواصل الجهاد ... ووقف مناضلا الى جانب الامام على كرم الله وجهه « وشهد معه موقعة الجمل وموقعة صفين وموقعة يوم النهروان وثبت على وفائه للامام على حتى لحق الامام بربه وبقى أبو أيوب يتطلب أى ميدان يندفع اليه ليقاوم فيه البغى والطغيان أو ينشر فيه كلمة الحق والايمان وكأن الله جل جلاله لم يخلقه الا ليكون حليف سلاحه وقرين جهاده ليظل مدافعا عن الحرمات والمقدسات ونصير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ...

***

ولكل مجاهد هدف فى جهاده ...

. وهدف ابى أيوب كان انتشار الدعوة واتساع رقعة الارض التى تسطع فوقها شمس الاسلام لتخرج أهلها من الظلمات الى النور ولذلك كان من المجاهدين فى جيش المسلمين الى الروم لخوض معركة القسطنطينية ...

وحارب فيه ... واستلفت أنظار القوم باستبساله واستماتته من أجل النصر ... كان يرى بسبق من بصيرته

ان راية الاسلام سوف ترفرف على مشارف ابعد مما هو واقف فى تلك المعركة ..

واصيب فى تلك المعركة ..

وذهب اليه القائد يعوده فقال له :

ــ ما حاجتك يا ابا أيوب ؟

ترى ماذا كان يريد ابو ايوب .... ذلك المجاهد العظيم .... الذى اعطاه الحظ السعيد فوق ما يعطى انسانا آخر .. اعطاه شرف ضيافة الرسول العظيم فى داره .. واعطاه روحا خلقت للجهاد وللجهاد فقط ..

اراد ان يجعل من نفسه بعد موته .. شيئا يتطلع اليه المسلمون ليصلوا الى مكانه ... لانه يعلم ان المسلمين اذا ما صدقوا الله ما عاهدوه عليه فلن يستكينوا حتى يصلوا الى أقصى الأرض بنور الرسالة ..

أراد أن يسبق فى جهاده كل المسلمين .. فيصل قبلهم الى أرض أبعد مما هم عليه ... فيكون لهم حافزا ودافعا للحاق به ..

فقال لقائده :

ــ اذا أنا مت فاركب بى .... ثم سغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغا حتى اذا لم تجد مساغا فادفنى وارجع ...

ثم قال وهو يجود أنفاسه ..

ــ اقرىء الناس منى السلام ولينطلقوا بى فى أرض العدو وليبعدوا ما استطاعوا وهناك فادفنونى ..

« رغبة منه فى أن يكون جثمانه طليعة للمجاهدين المظفرين من ورائه وكأنه يريد أن يقول لربه يوم لقائه ... يا الهى ها أنذا قد جاهدت فى سبيلك بحياتى وجاهدت فى سبيلك بجثتى بعد مماتى .. »

ونفذت وصيته ... ودفن فى القسطنطينية ..

***

مجاهد من هذا الطراز النادر الفريد .... لابد أن يكون على يديه النصر ... والمجاهدون الأوائل كانوا كلهم ذلك الرجل .... فكان انتصارهم سماقا ... بالغا أوج السماء عزة وافتخارا .. لهم ولمن أتى بعدهم ...

هذا واحد منهم ... أبو أيوب الأنصارى ....ما أروع قصته ... وما أزكى فى النفوس عطر سيرته ... رضى الله عنه اذ قال فيه وصحب له ... « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا .. ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما .. »


أُمُّ عَمَارَة
امْرَأَةٌ مُجَاهِدَةٌ

امرأة مجاهدة :

لم ينتشر الاسلام حيث انتشر ولا ثبتت قواعده بين الناس ودانت به الملايين فى كل صوب وحدب — الا بما بذله المسلمون الأوائل فى سبيله من جهاد وتضحيات وفداء حبا فى هذا الدين ونصرته — وحبا فى الله وايمانا به لا يتزعزع وطاعة لأوامره وحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم واقتداء به •

فدين الاسلام يدعونا أساسا الى البذل والتضحية — ويدعونا الى استشعار روح الفدائية والتمسك بدرع الثبات والاقدام ••• فالقرآن الكريم وهو دستور الاسلام يدعونا لذلك ويطالبنا به مستمدين العون من ايماننا بالله حتى يأتينا سبحانه بالفتح الكبير ويكتب لنا النصر المبين •

« يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » •

« يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » •

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما » •

« يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله

بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

وانبعاثا من تلك الأوامر الربانية واطاعة لها ولما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحث على الجهاد والتضحيات — بذل المسلمون الأوائل أنفسهم وأموالهم وضحوا بأرواحهم وأبنائهم وأهليهم وكل ما يملكون فى سبيل الله ذودا عن دينه وحرصا عليه وحماية لكلمته حتى تعلو وتنتشر وتصبح هى الكلمة العليا بأمر الله على وجه الأرض قاطبة .

وما علينا الا أن نقرأ القرآن الكريم فنجد نماذج كثيرة .

قصها الله علينا فى كتابه أمثلة نادرة ورافعة للفداء والتضحية فى سبيله وتاريخ الاسلام أيضا ملىء بنماذج كالنجوم الساطعة والمصابيح الهادية على طريق الجهاد والبذل، فى قمتها السيرة العطرة لجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أنتظم المسلمون الأوائل كلهم على طريق الجهاد فى سبيل الدعوة وبذلوا كل شىء فاستقام أمرها وعلا شأنها — وضعفت أمامها كل القوى المعادية فانهزمت وانمحت وزالت دولها .. ورفرفت على ربوعها راية الاسلام الزاهرة الشريفة الناصعة .

وكان للمرأة نصيب كبير على ذلك الطريق فقد شاركت خلال مراحل النضال فى معارك كبيرة وكثيرة وبألوان مختلفة .. من ألوان الكفاح والفداء والتضحية وشاركت فيها مشاركة عملية فعالة وقوية الأثر .

* * *

ويدلنا التاريخ على أسماء نساء مؤمنات بقيت ذكريات مشاركتهن للرجل فى الجهاد فى سبيل الدعوة نورا يهدى كل مسلمة تريد أن تجمع بين عزة الدنيا وثواب الآخرة ...

ومنهم الصحابية الجليلة أم عمارة « نسيبة بنت كعب بن عمرو » الأنصارية « ..... كانت امرأة من نساء المدينة — وأصبحت فى طليعة اللواتى سارعن منهن الى الاسلام — فأسلمت هى وزوجها زيد بن عاصم وولداها حبيب وعبد الله وذلك قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة وكان اسلامها فى بيعة العقبة الثالثة .

وعندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة كانت نسيبة من أشد الأنصار فرحا بهجرته عليه الصلاة والسلام وسرورا بمقدمه العظيم لأنها كما عبرت عن ذلك تستطيع وهو فى المدينة أن ترى طلعته وتستمع الى حديثه كل يوم وتستطلع نوره الشريف فى كل لحظة .

* * *

ولما كانت موقعة أحد التزمت نسيبة بفرضية الجهاد على كل مسلم ومسلمة فقالت لزوجها وولديها .

— الآن حق الجهاد لنصر دين الله .

فقال زوجها : حق الجهاد يا نسيبة فهيىء لى سلاحى .

وقال ولداها : حبيب وعبد الله حق الجهاد يا أماه فهيئى لنا السلاح .

فقالت نسيبة : قد هيأت لكم ولنفسى – فان الجهاد فى سبيل الله فرض على كل مسلم ومسلمة .

وخرجت الأسرة كلها: نسيبة وزوجها وولداها ليؤدوا الواجب المقدس الذى يفرضه الجهاد على كل مسلم ومسلمة ورآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يحملون سلاحهم ويغزون الطريق الى حيث تكون الحرب فقال لهم عليه الصلاة والسلام:
– (رحمكم الله أهل بيت بارك الله فيكم أهل بيت) .

فانتهزت نسيبة هذه الفرصة الطيبة وقالت :

– « يا رسول الله ادع الله أن نرافقك فى الجنة » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » .

فغمرها السرور وطار بها الفرح وقالت بعد دعاء النبى عليه الصلاة والسلام لها ولأسرتها برفقة الرسول فى الجنة :

ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا بعد ذلك .

ودارت رحى المعركة فوق جبل أحد بين المسلمين وأعدائهم الكافرين ونسيبة بين المحاربين المسلمين تتخلل صفوفهم وهى تحمل قربة الماء تسقى من يعطش منهم وتضمد جرح الذى تصيبه الجروح – وتحمس للقتال وتشد همم الرجال على البذل والفداء فى سبيل الله . وكانت كفة القتال حتى تلك اللحظة فى جانب المسلمين ، ولما تغير الأمر وانهزم المسلمون وتفرقوا أشتاتا ولم يثبت فى المعركة الا النبى عليه الصلاة والسلام وقليل من أصحابه وعرف كفار قريش ذلك فأرادوا أن ينتهزوا

الفرصة التى يترقبونها ، وقد سنحت لينالوا ثأرا من محمد صلى الله عليه وسلم ، فاتجهت جموعهم الى حيث كان يقف وحوله عدد قليل من أصحابه .

ونظرت نسيبة فاذا النبى فى مكانه يدافع ببسالة وعزم وسيوف الكفار تنوشه من كل جانب والسهام تنصب عليه من كل صوب – فصاحت كالأسد الكاسر : وامحمداه : وانحازت الى ناحيته صلى الله عليه وسلم تباشر القتال دفاعا عنه .. وانتضت سيفا وحملت قوسا واقتحمت المعركة تقاتل ببسالة. وأخذت تقترب فتضرب بالسيف ثم تبتعد فتقذف بالنبل ، وتقول هى فى ذلك « خرجت فى أول النهار أنظر الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتبهت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى بالقوس حتى خلصت الجراح الى » .

* * *

أخذت نسيبة تدافع عن النبى بصدق واخلاص وتضحية ، وتقاتل عنه أشد ما يكون القتال وهى لا تبالى ما يصيبها ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى موقفه ذلك ينظر أمامه فيراها وينظر الى يمينه فيراها وينظر الى شماله فيراها ... فحيثما التفت رآها وفى يدها سيف تضرب به الكفار أو سهم ترميهم به .

وضاق بها الكفار ضيقا شديدا فقد عطلتهم براعتها فى ضرب السيف ورمى القوس عن هدفهم وردتهم همتها القتالية

الشديدة الوطء عن التقدم لتحقيق غرضهم فشددوا عليها واتجهوا اليها يضيقون الخناق من حولها ليقتلوها واصابتها منهم ضربة سيف فى كتفها — فسقطت على الأرض ودمها الزكى ينزف.

وتحكى نسيبة عن هذه الاصابة فتقول « لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ابن قمئة يقول: «دلونى على محمد لانجوت ان نجا » فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربنى (ابن قمئة) هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان » •

طعنت طعنات كثيرة ورآى الرسول صلى الله عليه وسلم الدماء تسيل منها فنادى ابنها قائلا « يا ابن أم عمارة أمك ، أمك ، اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان » •

* * *

ثم انقشع غبار المعركة وعاد المسلمون يتفقدون القتلى والجرحى فرأوا نسيبة ملقاة على الأرض ودمها ينزف وفيها رمق من الحياة وهتف بها هاتف من المسلمين :

— نسيبة وكيف أنت ؟ وما أصابك ؟

قالت نسيبة :

— حدثونى أولا عن محمد ، هل رد الله عنه كيد العدو فنجا ؟

قالوا : رد الله عنه كيد العدو ونجا •

قالت : ساعدونى أذهب اليه لأراه بعينى •

قالوا : هلا سألت عن زوجك زيد وعن ولديك حبيب وعبد الله •

قالت : فى اصرار :

— لا تحدثونى عن غير محمد •

* * *

ولقد برىء جرح نسيبة ولكن أثره ظل غائرا فى كتفها طول حياتها تكشف عنه لكل من تسألها من نساء المسلمين عما فعلت يوم أحد •

* * *

وظلت تخدم الاسلام وتؤدى واجب الجهاد فى الحرب وواجب الدعوة الى الله وقت السلم — وشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان • ثم انتقل الرسول الى جوار ربه وولى الصديق أبو بكر الخلافة فواجه أول ما واجه انتقاض الردة على دين الله فى أطراف الدولة — وظهر على مسرح الأحداث مسيلمة الكذاب بأرض اليمامة يزعم أنه نبى فأرسل اليه أبو بكر جيشا من المؤمنين يحاربه — فقالت نسيبة مثلما قالت يوم حق الجهاد أيام موقعة أحد •

— الآن حق الجهاد لنصر دين الله •

فقال لها ولدها حبيب بن زيد : أذهب وتبقين يا أماه •

وذهب حبيب مع جيش المسلمين يحارب لنصر الله فى أرض اليمامة ودارت الحرب الى أن وقع حبيب أسيرا فى يد الكذاب مسيلمة •

فجعل مسيلمة يريده على الكفر بالله ورسوله ويقول له •

— أتشهد أن محمدا رسول الله •

فيقول حبيب فى ثبات ويقين •

— نعــم •

فيقول مسيلمة والضيق يأخذ به :

— اتشهد انى رسول الله •

فيقول حبيب :

— لا أسمع •• لا أسمع

فأخذ مسيلمة يعذبه عذابا مؤلما حتى يرده عن دينه وحبيب صــابر على الأذى محتمل وقــع التعــذيب الشديد ثــابت على الايمان بالله ورسوله محمــد صلى الله عليــه وسلم — فقطعه مسيلمة عضوا عضوا حتى مات وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وخاتم رسله — وبلغ النبأ الى نسيبة •• فلم تحزن على ولدها بل قالت :

— الآن لا ينوب عنى أحد فى الجهاد لنصر دين الله •

ثم حملت سيفها وقوسها مرة أخرى وخرجت للقتــال فى سبيل الله يصحبهــا ولدها الثانى عبد الله — ونذرت لله ألا يصيبها غسل حتى يقتل مسيلمة •• وكان حرصها كل الحرص على أن تقتله بيدها — وأعادت فى هذه الحــرب سيرتهــا

الشجاعة الباسلة التى كانت عليها فى موقعة أحد وضاق بها أيضا أنصار مسيلمة فاتجهوا اليها ليقتلوها فأصابتهــا ضربة سيف بترت أحد ذراعيها فلم تتقاعس — بل أضــافت الى ابنها عبد الله حماسا جديدا وثأرا جديدا فقالت له :

— انت ذراعى ولا ذراع لى فاحمل على عدو الله حتى تقتــله •

وحقق الله أملها فكان ابنها عبد الله هو أحد قاتلى مسيلمة•

تقول أم عمارة :

قطعت يدى يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة وما كان لى ناهيــة حتى رأيت الخبيث مقتولا واذا عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه فقلت له : أقتلته ؟

قال : نعم • فسجدت لله شكرا •

وبعد انتصار دين الله على الردة فى أرض اليمامة عــادت نسيبة بنت كعب بذراع من ذراعيها وولد من ولديهــا وقلب كبير لا يكاد يسع فرحتها لانتصار دين الله وتبقى سيرتهــا ما بقيت الحياة تضرب للمرأة مثلا يحتذى وقــدوة تقتــدى فى الجهاد فى سبيل الحق ونصرة الدين فتجمع بجهادها الصادق وايمانها العميق فروع النصر حتى تصبح شجــرته باســقة سائغة « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » •

[illegible]

[illegible]

لله فى خلقه رجال يصطفيهم بحبه لدينه دون أى شىء آخر فى الدنيا ... حتى لو كان رمق الحياة ... ويفعلون مايفعلون فيها وأمامهم وجه الله ... لا يتوانون عن التطلع لنوره الأسمى ... ولا يتوانون عن ذكر جلاله .. ولا يتوانون عن التوجه لقدرته بالرجاء ولرحمته بأن تسبغ عليهم ... وبأن يلقاهم فى رحابه برضاه .

انهم بأجسادهم وأرواحهم .. بدمائهم وأعصابهم .. بصحوهم ومنامهم بأقوالهم وأفعالهم .. انهم بكل ذلك من الله والى الله .

وان كان كل الرعيل الاول من المسلمين على هذا المنوال ايمانا بالله أعمق ما يكون الايمان وحبا فى دينه أصدق ما يكون الحب والتزاما به نصا وروحا أشد ما يكون الالتزام فى نقاء وعقيدة وصفاء نفس وصدق وجرأة فى الحق لا تخشى فى الله لومة لائم ..

الا أن هناك منهم من تميز بميزة عن آخر .. فأصبح بها من بين المؤمنين العابدين مميزا .. يتعارف عليه بها دون غيره من المؤمنين العابدين .

من هؤلاء الاعلام الصحابى الجليل أبو الـدرداء •• من الخزرج كان رجلا ذا عقل وتدبر وروية •• له وزنه بين رجال المدينـــة ••

كانت له تجارة كبيرة ينمو ماله بها يوما بعد يوم •• ويسير الى ازديـاد دائما — يوم ان اقتنع بالاسلام دينـا وبـايع محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله بهذا الدين الحنيف •• كان تاجرا نابهـا يرن صدى نجاحه بين تجـار المدينة ••

بجانب تجارته الناجحة آمن بالاسلام واعتنقه دينـا •• لكنه لم يمض على اعتناقه دين الاسلام الا وقت وجيز •• حتى وجد فى نفسه ميلا مسيطرا الى العبـادة الخالصة •• فأخذ ينفرد بمنهجه التعبدى دون غيره •• وأصبح ينشـد تخصصا روحيا وتفوقا يرنو الى أقصى درجات الكمال الميسور لبنى الانســان ••

أراد العبادة معراجا يرتفع به الى عالم الخير الأعلى ويشارف به الحق فى جلاله والحقيقة فى مشرقها •• فترك المـال الكثير والتجارة العريضة وألقى من وراء ظهره ترف الحياة •• وأقبل على الله •• بكل قلبـــه •• بكل نفســـه •• وقبـل الله منه ذلك فأفاض عليه كامل الحب الالهى ••••

ويقول أبو الدرداء ••

« أسلمت مع النبى صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر •

وأردت ان تجتمع لى العبادة والتجارة فلم تجتمعـــا •

رفضت التجارة وأقبلت على العبادة وما يسرنى •

أن أبيع واشترى فأربح كل يوم ثلاثمائة دينار •

حتى لو يكون حانوتى على باب المسجد •• الا انى •

لا أقول لكم ان الله حرم البيع ولكنى أحب ان أكون •

من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله •

استولت العبادة على كل حواسه وجوارحه •• ومن قبـل كان التأمل والتفكر من أوضح مميزاته •

سئلت عنه أمه فقالت عن أفضل ما كان يحب من عمل :

— التفكر والاعتبار •

ثم هو دائما يقول لاخوانه وهو يحثهم على التأمل والتفكر •

— تفكر ساعة خير من عبادة ليلة •

كان يحس احساسا صادقا أنه خلق لعبادة الله •• فمارس هذه العبادة بأقصى حالات التفكر والتبتل للذين يمليهما الايمان العميق •• الذى هداه اليه ربه وحباه به •

ليس ذلك بغريب على تفكير أبى الـدرداء •• فقـد كانت العبادة عنده كما مارسها وكما أراد أن يمارسها الآخرون — هى كل ما فى الحياة من طعام وشراب ••• وصحو ومنام •• وصمت وكلام •• وحركة وسكون •• كل ما فى الحياة يجب أن يكون هو العبادة لله وحده •• تفكرا وتبتـلا وذكرا وطاعة وخشـوعا ••

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين »

وكان دائما — انبثاقا من تلك النفس العابدة — يقول لمن حوله :

« الا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند بارئكم وانماها فى درجاتكم .

وخير من أن تغزو عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم .

وخير من الدراهم والدنانير .. ذكر الله .. ولذكر الله أكبر » .

وصدق الله العظيم اذ يقول :

« الا بذكر الله تطمئن القلوب » .

كانت نظريته فى امتلاك الدنيا أن ينفض يديه منها ويتفرغ لمن له الدوام .. ما كان أشد تفاعله مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : —

تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم .. فانه من كانت الدنيا أكبر همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه .

وكان الله اليه بكل خير أسرع » .

كل ما كان يطلبه أبو الدرداء من عمره أن يكون لله وفى الله ..ولذلك كان دائما يقول :

« اللهم أنى أعوذ بك من شتات القلب .

واذا سئل عن شتات القلب أجاب .

« أن يكون لى فى كل واد مال .. » .

وهو يدعو الناس الى امتلاك الدنيا بالاستغناء عنها فذلك هو الامتلاك الحقيقى لها أما الجرى وراء أطماعها التى لا تؤذن بانتهاء فذلك شر ألوان العبودية والرق .

ويقول فى هذا المعنى :

« من لم يكن غنيا عن الدنيا فلا دنيا له » .

ولذلك فالمال عنده وسيلة العيش والقنوع المعتدل ليس غير .. ومن ثم فان على الناس أن يأخذوه من حلال .. وان يكسبوه فى رفق واعتدال لا فى جشع وتهالك ..

« لا تأكل الا طيبا .. ولا تكسب الا طيبا .. ولا تدخل بيتك : الا طيبا » .

كان يؤمن من خلال عقيدته الصافية .. بالحقيقة الكبرى التى ملأت جوانحه والاشراقة المضيئة التى أشرقت فى مشاعره ومن حوله ..

كان يؤمن من خلال ذلك أن عرض الدنيا .. قليل .. بل وسائر من هذا الى ذاك .. هذا يجمع وذاك يأخذ .. وذاك يأخذ ليجمع وآخر يأخذ منه ... لن تدوم لواحد . وليس البقاء فيها لشىء ..

وها هو يكتب لصاحب له فيقول :

« فلست فى شىء من عرض الدنيا الا وقد كان لغيرك قبلك وهو صائر لغيرك بعدك وليس لك منه الا ما قدمت لنفسك .

فآثرها على من تجمع له المال من ولد لك ليكون له ارثا ..
فأنت .. انما تجمع لواحد من اثنين :

أما ولد صالح يعمل فيه بطاعة الله فيسعد بما شقيت به
وأما ولد عاص يعمل فيه بمعصية الله فتشقى بما
جمعت .

له .. فثق لهم بما عند الله من رزق وانج بنفسك » .

* * *

جاهد أبو الدرداء نفسه حتى وصل الى هذه الذروة من
الروحية الشفافة والتعبدية المتناهية التفاعل فى نور الله ..
وحتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عويمر — أبو الدرداء — حكيم أمتى » .
كما قال عمر بن الخطاب فى مجلسه ذات يوم :
— حدثونا عن العاقلين .
فقيل له :

— من العاقلين — يا أمير المؤمنين .
قال عمر رضى الله عنه .
— معاذ بن جبل وأبو الدرداء .

ومعاذ بن جبل هو الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه
وسلم .

« أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل » .

وقد أوفده عمر بن الخطاب الى الشام ليعلم الناس القرآن
وأصول الدين وكأنما الاثنان : أبو الدرداء ومعاذ على وتيرة

واحدة فى الحياة وعلى نظام واحد فى العبادة .. الدنيا ليست
عندهما فى الحسبان الا اذا كانت وسيلة لعبادة الله ... أما
الآخرة فهى القصد والغاية .. ووجه الله لا ترى العين غيره
ولا يملأ الوجدان شىء سواه .

سأله الرسول عليه الصلاة والسلام .

— « أن لكل حق حقيقة ... فما حقيقة ايمانك ؟

قال معاذ :

— ما أصبحت صباحا قط الا ظننت أنى لا أمسى ولا أمسيت
مساء الا ظننت أنى لا أصبح .. ولا خطوت خطوة الا ظننت
أنى لا أتبعها غيرها وكأنى أنظر الى كل أمة جاثية تدعى الى
كتابها .. وكأنى أرى أهل الجنة فى الجنة ينعمون وأهل النار
فى النار يعذبون » .

انه منهج « ابى الدرداء » أيضا اذ كان يعلم المرء فيقول
له :

« صم وأفطر .. وصل وقم .. واكتسب ولا تأثم ..
ولا تموتن ... الا مسلما .. واياك ودعوة المظلوم » .

* * *

كلاهما من أنصار المدينة وبايعا الرسول صلى الله عليه
وسلم فى العقبة الثانية .. وصارا من السابقين الأولين .. ولقد
آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة الى المدينة بين

أبى الدرداء وسلمان الفارسى ، ولقد أقاما سويا مدة فى دار واحدة .. وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يقوم الليل ويصوم النهار فأخذ « سلمان » عليه هذه المبالغة فى العبادة ..

وذات يوم حاول « سلمان » أن يثنى عزمه عن الصوم وكان نافلة فقال له أبو الدرداء معاتبا :

— اتمنعنى أن أصوم لربى وأصلى له .

فأجابه سلمان قائلا :

— « ان لربك عز وجل عليك حقا .. وان لعينيك عليك حقا وان لأهلك عليك حقا اعط كل ذى حق حقه .. صم وأفطر .. وقم ونم .

وتوجه أبو الدرداء الى النبى صلى الله عليه وسلم يخبره بما حدث من سلمان فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

— « يا أبا الدرداء . ان لجسدك عليك حقا كما قال لك سلمان »

وقد كان أبو الدرداء رجلا محاربا .. لكن ما أرق خلقه وطباعه .. وما أرفع نفسه عن الاساءة ..

وماذا يرجى غير ذلك من انسان ذاك شأنه فى عبادة الله انه ملك يمشى على الارض .. التقى به رجل فقال له مسيئا :

— « يا معشر القراء .. ما بالكم أجبن منا وأبخل اذا سئلتم وأعظم .

لقما اذا أكلتم » ...

فتجاوز أبو الدرداء عن الاساءة وأعرض عن قائلها .

دعته الى ذلك رقة نفسه .. وعدم كراهيته لانسان قدر

كراهيته لفعله السىء وأمله دائما فى أن الانسان يثوب دائما الى الأحسن والأصلح من أمره .

« لا تكلفوا الناس ما لم يكلفوا .. ولا تحاسبوهم دون ربهم » .

« عليكم أنفسكم فان من تتبع ما يرى فى الناس يطل حزنه » .

لم يكن أبو الدرداء بذلك النهج فى العبادة والتربية سلبيا تجاه الاصلاح .. أو منعزلا عن الادلاء بدلوه فى تربية القوم .. لكنه كان يصدر فى منهجه ذلك عن نفس سمحة تقدر أن العالم والمتعلم كل منهما انسان له نبضه ومشاعره وان كلا منهما من طينة واحدة فينبغى للعالم أن يأتى للمتعلم من موطن اكرامه والاحسان فى معاملته .

انه لا يريد للعابد مهما علا شأنه فى عبادة الله أن ينصب من نفسه محاسبا على عباد الله .. بل يريد منه أن يحمد الله على توفيقه وان يعاون بدعائه وبنبل مشاعره وحسن نواياه أولئك الذين لم يدركوا مثل هذا التوفيق بعد .

مر أبو الدرداء على رجل قد أصاب ذنبا والناس يسبونه فنهاهم عنه وحدثهم موجها ومعلما ومثيرا فى أنفسهم مواطن السماحة والارتفاع بالخلق الى مرتبة السمو فى التوجيه بدلا من الانحطاط الى مرتبة اللوم والتقريع والسخرية .. فقال لهم :

— « أرأيتم لو وجدتموه فى حفرة ألم تكونوا مخرجيه منها؟
قالوا :
— « بلى » .
قال :
— « فلا تسبوه اذن واحمدوا الله الذى عافاكم .
قالوا :
— « أفلا تبغضه » .
قال :
— انما أبغض عمله .. فاذا تركه فهو أخى » .

وأنه ليوصى خير الوصية بالاخوة .. أخوة الانسان للانسان .. يوصى بأن تبنى العلاقة بينهما على المحبة والمودة .. على أساس من واقع الطبيعة والانسانية نفسها .. انه يقول :

« معاتبة الأخ خير لك من فقده .. ومن لك بأخيك كله » .

« .. أعط أخاك ولن له .. ولا تطع فيه حاسدا فتكون مثله .. »

« .. غدا يأتيك الموت فيكفيك فقده .. فكيف تبكيه بعد الموت»
.. وفى الحياة ما كنت أديته حقه » .

* * *

نعم .. لم يكن أبو الدرداء سلبيا أو متنصلا من تبعات الدعوة .. مكتفيا من أداء الواجب بالعبادة المستغرقة .. بل كان فارسا شديد المراس .. شجاع القلب فياض النفس

يبذل الدم بالتضحية وبالعمر فى سبيل الله حتى يلقاه اما منتصرا .. واما شهيدا .

فقد حارب فى المواقع الأولى يوم أحد .. وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد من كانوا على الجبل من الكفار .. وأظهر فى ذلك عزما وارادة صلبة .. وجهادا صادقا وشجاعة تحتذى .

ورآه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يجرى وراء الاعداء وقد انهزموا أمامه فقال :
« نعم الفارس عويمر » .

بل وشارك أيضا فى توسيع رقعة البلاد الاسلامية .. فلما توجه جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر كان أبو الدرداء أحد كبار القواد والصحابة فيه وحاز نصيبا من فتح الاسكندرية كما شارك فى فتح قبرص مع معاوية بن أبى سفيان وعدد من الصحابة وهزته فى هذا الفتح تلك الصورة البشعة من الهزيمة التى تحيق بمن يبعد بنفسه عن طريق الله .. ويستسلم لخداع الدنيا لنفس الانسان بالترف والبهجة وبهرج النعيم .. فأخذ يبكى بكاء مرا .. فاقترب منه الناس دهشين يسألونه عن سر بكائه ..

ويصور ابن جبير هذه اللحظة النفسية الرائعة عند أبى الدرداء .. ومشاعر العبودية العارمة لله وحده .. يقول ابن جبير ..

« لما فتحت قبرص فرق بين أهليها فبكى بعضهم الى بعض .. ورأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكى فقلت له :

يا أبا الدرداء .. ما يبكيك فى يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله » .

فأجاب أبو الدرداء :

ــ ويحك يا جبير .. ما أهون الخلق على الله .. اذا هم تركوا أمره .. بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لها الملك تركت أمر الله فصارت الى ما ترى » .

* * *

وتولى القضـــاء ..

وقع عليه اختيار الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. وهو الذى كان .

يتسم بالفراسة ويعرف قيم الرجال .. وقد عــرف فى أبى الدرداء فضله وعلمه وتفقهه فى الدين والمامه بدقائقه وخشيته لله وايثاره الحق والعدل .

ترى كيف كان أبو الدرداء فى هذا المنصب ؟

كان الرجل القوى الورع .. العادل الحكيم .. العـــالم المتواضع .. الخائف من الله .. الراغب من كل أعماق النفس فى لقاء الله على صراط الله المستقيم .. واذا ما نظرنـــا الى فقرات من دستور القضاء الذى رسمه عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى الذى ولاه قضاء الكوفة :

« آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك .. ولا ييأس ضعيف من عدلك .. لا يمنعك قضـــاء

قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع الى الحق .. فان الحق لا يبطله شىء .. واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .. الفهم .. الفهم .. فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ، واعرف الاشباه والأمثال ثم قس الأمور عند ذلك .. ثم أعمد .. الى أحبها لله » .

واذا ما قارنا هذا القول بمنهج أبى الدرداء فى قضائه .. لوجدنا أنه لا يخرج عنه .. فقد كان يلتزم جانب الحرص .. بل والحرص الشديد .. فى نظر ما يعرض عليه من قضـــايا الناس .. فكان يحقق ويدقق حتى لا يضيع حق من صاحبه وحتى لا يلوذ مذنب بالفرار من العقوبة ..

بل وكان دائم التفكير فى قضاياه .. لا ينتهى منها بمجرد أن يحكم فيها ولكنه كان يعيد التفكير فيها مرة بعد مرة حتى يقطع الشك باليقين .. ويطمئن الاطمئنان كله بأن حكمه لا شبهة فيه من ظلم ولا لبس من خطأ ..

وجاء فى المصادر :

« كان أبو الـــدرداء اذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنـــه نظر اليهما فقال : ارجعا لى .. أعيدا على قضيتكما .. وما ذلك .. الا ليستوثق من صدق ما سبق أن سمع منهما » .

ما أخوفه من الظلم يقع منه .. وما أشقاه اذا ماوقع منه .. ليس قويا على أحد ــ وهو فى سلطة القضاء ــ الا بالعدل .. يقول رضى الله عنه وأرضاه ...

ـ « انى أبغض أن أظلم أحدا •• ولكنى أبغض أكثر وأكثر أن أظلم من لا يستعين على الا بالله العلى الكبير » •

***

ما أعظم هذه النفس •• وياالاشراق هذه الروح الطيبة لأبى الدرداء الحكيم الأواب العظيم ••

أنه يضع اللافتة مضيئة باهرة الضوء فى الواجهة أمام كل القضاة وأمام كل الحكام •• وأمام أولياء الأمور على الناس •

أنه يذكرهم ويحذرهم ••

يذكرهم بالله الذى له ناصية كل أمر •••

ويحذرهم من خداع الوهم حين يظنون أن المستضعفين من الناس العزل من سلاح الدفاع •• أو سلاح الأمن •• أو سلاح الطمأنينة أقرب منالا من أيديهم ••

ويذكرهم بأن هؤلاء فى ضعفهم وفى خوفهم يملكون أقوى ما يملك الأقوياء ، يملكون القوة الرادعة،والقدرة الماحقة •• الا وهى جنب الله •• حين يتوسلون اليه بعجزهم ويتضرعون الى قدرته بضعفهم •• ويطرحون بين يديه سبحانه قضيتهم وهوانهم على الناس وظلمهم أمام الحكام •

كانت له من فطنة المؤمن وقدرة الفيلسوف وتجربة المحارب وفقه الصحابى ما جعل أقواله وأفعاله حركة حية فى بناء الروح•

***

هذا أبو الدرداء •• صاحب الرسول وتلميذه ، رجل دفع الدنيا عن نفسه •• وزاد سلطانها عن روحه •• عكف على نفسه

حتى صقلها وذكاها وحتى صارت مرآة صافية انعكس عليها من الحكمة والصواب والخير ما جعل منه معلما عظيما يعتبر الحياة مجرد عارية •• ذاهبة على الدوام الى زوال ،وعلى الفطن اللبيب أن يجعل منها الجسر الى الحياة الأبقى والأروع •• عند الله فى جناته •• وقف شامخا بعلمه وورعه ••• وقوة نفسه وطهر ضميره •• وقف شامخا بكل ذلك فى الشام وهى تموج بالترف والمباهج والنعيم ••• تتراقص على حافة الابتعاد عن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم •• وتنحاز أكثر فأكثر عن منهج الرعيل الأول من المسلمين الشهداء والصديقين •• وقف أمام هؤلاء القوم الذين بدأوا يسلكون هذا المسلك الجديد •• يغريهم بريق النعمة ويجذبهم بهرج الحياة الخادعة •• وقال لهم ••

« يا أهل الشام •• أنتم الأخوان فى الدين والجيران فى الدار والأنصار على الأعداء •• ولكن مالى أراكم لا تستحيون ••تجمعون ما لا تأكلون •• وتبنون ما لا تسكنون وترجون ما لا تبلغون •• قد كانت القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ويؤملون فيطلبون ويبنون فيوثقون فأصبح جمعهم بورا وأملهم غرورا وبيوتهم قبورا •• أولئك قوم عاد •• ملأوا ما بين عدن الى عمان أموالا وأولادا •• من يشترى منى تركة آل عاد بدرهمين ؟ »

بنظرة الصدق واليقين••اليس ذلك هو المصير •• ولن يبقى لامرىء الا وجه الله •• فكيف يكون اللقاء اذا تنكب الطريق •

هذا هو رأيه •• قولا وتطبيقا ••

ما أزهده حين توجه الى الله وخرج من ماله واكتفى من الدنيا بما يستره ، ويقيم أوده ، ويعيش به على الكفاف من عرض

الدنيا .. غنيا ثريا بما له فى الآخرة..حسبه من عرض الدنيا ذلك وأقل منه .. فما عند الله واسع وباق وعـريض عرض السموات والأرض .

أصابه المرض .. فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوه نائما على فراش من الجلد فقالوا له :

ـ لو شئت .. كان لك فراش أطيب وأنعم

فأجابهم وهو يشير بسبابته الى بعيـد .

ـ ان دارنا هناك ـ لها نجمع .. واليها نرجع .. نظعـن اليهـا ونعمل لهـا ..

وأصدق دليل عن بعده عن الدنيا وتطلعه الى الآخرة مانلمسه منه حينما خطب يـزيد بن معاوية ابنتـه وكانت على درجـة من الجمال والذكاء .. فرفض أبو الدرداء ولم يقبل خطبـة يزيد لابنته .. ثم زوجها لواحد من فقراء المسلمين قدمه صلاحه وحسن اسلامه عند أبى الدرداء وعجب القوم من ذلك فقال لهم أبو الدرداء .

ـ ما ظنكم بالدرداء ؟! اذا قام على رأسها الخدم والخصيان وبهرها زخرف القصور ونظرت فى بيوت يلتمع فيها بصرها .. أين دينها منها يومئذ ؟ ..

* * *

رضى الله عنـه ..

كان يرفض العلم بلا عمل .. انه بذلك صاحب رسالة .. فالعبادة عنده علم وعمل .. حيث يقول :

« لا يكون أحدكم تقيا حتى يكون عالمـا .. ولن يكون بالعلم جميلا . حتى يكون به عاملا » .

أنه لا يفرق بين العلم والعمل .. بل ليكون أحدهما مثمرا لابد له من مؤازرة الآخـر ...

وما كان أخشاه من الفصل بينهما فقال :

« ان أخشى ما أخشاه على نفسى أن يقال لى يوم القيـامة على رءوس الاشهاد : يا عويمر : هل علمت ؟ فأقول نعم .. فيقال لى فما ذا عملت فيما علمت » .

ومن دعائه :

« اللهم أنى أعوذ بك أن تلعننى قلوب العلماء » .

وسئل ذات مرة :

ـ وكيف تلعنك قلوبهم ؟

فقـال :

ـ « تكرهنى » .

* * *

رضى الله عن أبى الدرداء وأرضاه ..كان صاحب مبدأ وعقيدة .. حريصا على ايجادهما عند كل الناس .. يدعو اليهمـا .. .. وما الطريق اليهما الا العبادة المتقـانية فى وجه الله .. وما الطريق اليها الا العلم والعمل بالعلم ..

وما الطريق السوى لهم الا التواضع وعدم الغرور •• وعدم التعالى على الآخرين •••

ظل أبو الدرداء نبراسا للخير والهدى وقدوه حسنة ••

وضوءا مشعا للمثل العليا فى أسمى مواقعها الى أن مات •••

❋ ❋ ❋

ومن المفارقات اللطيفة أن قالت زوجته التى عاشرته وعاشت مدة بعد موته :

« اللهم أن أبا الدرداء خطبنى فتزوجنى فى الدنيا •• اللهم فأنا أخطبه اليك وأسألك أن تزوجينه فى الجنة » •

فقال لهـا أبو الدرداء :

— فان أردت ذلك •• فكنت أنا الأول فلا تتزوجى بعدى » •

وما جرى على لسانه ••• كان •

فقد توفى هو قبلها •• وكانت لا تزال على حسنها وجمالها وذكائها مما دفع معاوية الى أن يخطبها لنفســه •• ولكنهـا اعتذرت والوفاء لأبى الدرداء يملأ أعطافها وقالت :

— لا والله •• لا أتزوج زوجا فى الدنيـــــا حتى أتزوج أبا الدرداء ان شاء الله فى الجنة ••

❋ ❋ ❋

رضى الله عنهم وأرضاهم ••

وسلكنا بفضله على طريقهم ••

طريق الهدى والنور ••

طريق محمد بن عبد الله •• رسول الله صــلى الله عليــه وســلم •• »

[illegible]

وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ

دوت الأصوات المرتجفة من الخوف .. المرتعشة من الوجل بأن التتار على أبواب البلدة .. ومن النـــاس من كان ينطق بالحقيقة فى ذلك اليوم .. ان التتار يقتربون منها .. بخطى سريعة داهمة وأنهم عما قليل .. لا يلبثون الا بضع لحظـات ثم يطبقون عليهم ويفنوهم عن آخرهم تحت سـنابك خيلهم الكثيرة .. وتدوسهم أقدام جحافلهم الجرارة .. التى كانت تسير .. وكأنها جراد منتشر .. يحجب الشمس عن الأرض ... ويحرق الأخضر .. ويأكل مظاهر الحياة من فوق سطحها ...فيغادرونها خرابا يبابا ..

لذلك فزع الناس .. واصطكت أسنانهم .. وكل منهم توقف فكره لحظة .. طالت أو قصرت .. لينظـر ماذا يعمل ...

وبدأ الليل يلف البلدة « حران » بثوبه ... وما أقساه من ليل .. ظلامه كان كثيفا .. وما أجمل فرصته للأعداء ليغيروا .. ويفتكوا .. سائرين فى طريق شرهم تحت جناحه الأسود.

وكان واضحا .. ما يجب على كل فرد أن يفعـل فى ذلك اليوم ..

لم يكن أمام الناس الا الهجرة .. ترك الديار .. ومتاعهم .. ماذا يفعلون به .. ؟

ليس لهم الا أن يحملوا ما يقدرون عليه .. وفى أوله .. أغلى المتاع وأعزه الى نفس صاحبـه ..

وخرجت الأسر .. تتوالى على الطرق .. الى خارج حران .. قبل أن تصلها الجحافل القادمة من الشرق .. دون أن يعوقها عائق أو يقف فى سبيلها حاجز ..

وكان بين تلك الأسر ... أسرة « ابن تيمية .. »

خرجت بعد أن حزمت متاعها .. أترى كان هذا المتاع ذهبا أو فضة .. ؟ كلا .. أبعد من ذلك بكثير .. كان الكتب .. الكتب لا شىء غيرها .. فهى أسرة علم ودين .. وقد لاقت فى سبيل حملها مشقات كثيرة .. لأنها ثروتهم .. وغذاؤهم .. وأنفس جواهرهم وأخذت الأسرة .. تسعى بجد .. ودأب .. فى طريقها الى دمشق .. وكلها ترقب خيفة المفاجأة .. ومن بينهم طفل لم يدرك السابعة من العمر ... يضعه أبوه على الدابة وقتا .. ويحمله على كتفيه وقتا آخر .. ويبعث به الى أمه فى محفتها حينا ثالثا ... كل ذلك .. والطفل لم يكن لاهيا كبقية الأطفال فى مثل سنه .. بل كان يشعر بما تشعر به الأسرة .. السائرة فى ظلام الليل .. المجاهدة للفرار من وجه التتار المعتدين ... والهروب من غاراتهم المفسدة ورأى على وجهها الفزع الأكبر الذى أصاب السكان الآمنين .. وهم يهرعون الى النجاة .. فانطبع فى نفسه كره التتار وكره الاعتداء ..

ذلك الطفل هو .. : أحمد تقى الدين « ابن تيمية » ..

* * *

وصلت الأسرة .. أبا وأما .. وابنا .. الى دمشق ، فاستقربها المقام .. ووجدت فيها أمنها واطمئنانها .. وذاع بين أهلها صيت الرجل ... واشتهر أمره وسرعان ما أصبح له كرسى للوعظ والدراسة والتعليم بجامع دمشق .. لما عرف عنه من دقة الذكاء .. وصفاء الحافظة .. وقدرتها على الحفظ الواعى الصحيح ..

وتدرج الغلام « ابن تيميه » فى هذا الجو ... جو الذكاء والاعتراف بالفضل والتقديم لغزارة علمه .. أبا عن جد ..

ولم يكن للأب وجهة يوجه اليها ابنه ... غير وجهة العلم الذى تتوارثه أسرته .. والذى ينادى به عصره .. وتدل عليه ملامح النجابة والذكاء المفرط الذى يتوسمه فى الغلام كل من ينظر اليه .

فاتجه الى العلم والدين ...

حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل صغير السن .. ثم الحديث ... واللغة وتعرف على أحكام الفقه .. سار معه البروز والتفوق فى كل من تلك الاتجاهات .. لماذا ؟ ..

كان يحب الجد والاجتهاد .. والانصراف الى المفيد المجدى من العلوم .. والبعد عن لهو الصبيان وعبثهم وفراغهم ..

ومداومته السعى فى أن يدرك بنفسه وقلبه كل ما حوله ..

دون أن ينقطع عن الحياة المحيطة بـه ••• الى الحفظ والاستذكار فقط •••

كما كان جاد الذاكرة •• متيقظ العقل •• مستقيم الفكر •• وتسامع الناس •• بهذا الصبى •• فقام اليه شيخ من العلماء يمتحنه وأملى عليه من الأحاديث أحد عشر ليكتبها فى لوحة ••• ثم نظر اليها الصبى مرة واحدة ••• ومسحها •• ثم قالها للشيخ دون أن ينقص منها حرفا واحدا ••

فتركه الشيخ وهو يقول :

ــ ان عاش هذا الصبى ليكونن له شأن عظيم •• » •

وسارت الأيام بابن تيمية •• وكلما كان يكبر •• يزيد مقدرة على استيعاب كل ما يلقى اليه •• من العلوم والمعارف ••

ولكن ذاكرته القوية •• دفعت به الى أن يدرس الرياضة •• ويعنى بالعلوم العربية عناية خاصة ••• ويدرسها كمن سوف يتخصص فيها •• فحفظ نثرا كثيرا وشعرا كثيرا وحفظ أخبار العرب القدماء •• وتاريخ الدولة الاسلامية •••

بجانب ذلك •• برع فى النحو براعة واضحة •• وتعلم تفسير القرآن ومراجعة الموسوعات التى كتبت فيه •• وقرأها بفكر حر غير متقيد الا « بالأثر الصحيح واللغة الصحيحة والعقل السليم • والوجدان المتيقظ •• والفكر الحكيم •

وحرص على معرفة آراء الصحابة •• وسابقيه من العلماء •• واتجاهاتهم الفكرية حتى لم يترك بابا من أبواب المعرفة فى عصره الا أتقنه فصار له من نتيجة تلك الدراسة الواسعة التى أكب عليها فى شبابه •• صار له شأن كبير •• شغل به العصر الذى كان فيه والأجيال التى جاءت بعده •• وقال فيه المؤرخون •• أنه فيلسوف دينى مستقيم الفكر •• جدد الاسلام واعاده قشيبا كما بدأ وأزال عنه غبار القرون الذى تكاثف عليه حتى حال دون ادراك حقيقته ومعرفة غايته •••

* * *

ذلك الشاب ابن تيمية •• كان أبيض الوجه يغطى رأسه شعر أسود كثيف •• ويملأ لحيته فى غزارة •• متحدث العينين •• لا بالطويل ولا بالقصير •• قوى الصوت •• طلق اللسان •• » •

لم يكد يبلغ الثانية والعشرين •• حتى جلس فى كرسى والده بجامع دمشق •• حيث كان والده قد توفى •• فخلفه هو ••• يفتى الناس ويشرح الحديث ويعلمه ويملأ النفوس برحيق معارفه التى ملأت قلبه ونفسه •• بما أودع من قلب مستوعب وعقل ذكى وموهبة مدركة ••• وتثقيف لم ينله على مر العصور •• الا القليل •• والقليل جدا ••

وكان الاسلام فى حاجة الى مثله فى ذلك الوقت فقد قام الجدل بين المذاهب •• وغلب الحكام مذاهب على أخرى وكثر

التفرق بين المسلمين نتيجة لهذا الجدل العقيم .. ولم يرقه هذا الجدل ولم تعجبه الطرق التى يتبعها أهل العلم فى اثبات علمهم ... فألقى دروسه بلسان عربى مبين وعلم صحيح غزير لفت اليه الأنظار . وشد اليه قلوب السامعين وجمع حوله من يوافقه ومن يخالفه ... وكرس جهده لاحياء تعاليم الاسلام كما كانت أيام الرسول والخلفاء .. صافية لم تشبها شائبة .. ولم يعكر صفوها أفكار دخيلة .. وقصده العلماء .. معجبين وجاءه الطلاب يبحثون عن العلم والتزود من المعرفة الحرة الصحيحة .. وتوافد عليه العامة ينهلون من اخلاصه وبيانه وأفكاره ...

.... ولكن .....

رغم كل ذلك .. اجتمع عليه .. مخالفون .. قاوموه ... صدهم بقول عنيف ... وخلق حاد ... فزادت مقاومتهم .. ودارت المناقشات بين العلماء فى فقهه وعلمه وجرأته ..

حتى أسكت هذه المناقشات حينا من الدهر – بلوغ التتار الشام – لسنة ٦٩٩ هـ .. وكان حينئذ فى الثانية والثلاثين حين تقدم الى حرب يساهم فيها بنصيب كبير من الجهاد .. كما ساهم فى العلم بنصيب كبير...وأثبت أنه فى ميدان الحرب أيضا .. الفارس المقدام القوى ... الذى لا فرق عنده .. بين السيف على عاتقه والقلم بين أصابعه والعلم بين جوانحه..

وصار التتار على أبواب دمشق .. ففزع أهلها .. وفر كثير من أعيانها وعلمائها الى مصر ... وتركوها دون حاكم أو ضابط لأمورها ..

ولكنه لم يفر مع الفارين .. بل آثر أن يبقى مواسيا للعامة الذين بقوا فى دمشق ولم يغادروها .

فجمع من لم يرتحل من الأعيان واتفقوا على ضبط الأمور .. وأن يذهب على رأس وفد منهم لمقابلة ملك التتار والحديث معه فى العدول عن اقتحام دمشق ودهش ملك التتار من ثبات ذلك الرسول ورباطة جأشه أمامه .. ونزل وفى نفسه منه هيبة كبيرة .. وتأجل دخول التتار دمشق .. الى أن عاثت جنودهم فى الأرض وأهلكوا الزروع .. فذهب مع وفد لمقابلة ملك التتار مرة أخرى .. فأولم للوفد وليمة .. فأكلوا الا ابن تيمية .. وسئل عن ذلك .. فقال :

كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتهم من أغنام الناس . وطبختموه بما قطعتم من أشجارهم ؟

* * *

وجاءت سنة ٧٠٢ .. وزحف التتار بجموعهم الى دمشق من جديد فعاود الناس فرارهم .. ولكن ابن تيمية وقف فى وجههم يحثهم على الجهاد ويمنعهم من الاسراع الى الفرار ويرغبهم فى انفاق المال فى سبيل حماية البلاد .. ويحرك النخوة فى القلوب .. حتى اجتمع جيش الشام وجيش مصر..

ثم امتطى جواده .. وخرج الى الميدان .. فارسا .. محاربا ليضرب المثل على اشتراك العلم مع العمل .. على غير سابقة من عالم مثله .. وأخذ يتقدم الجموع الذاهبة لملاقاة العدو .. وذهب الى مرج الصفر قريبا من دمشق .. وبدأت الموقعة التاريخية المسماة « شقحب » وتلاقى الجيشان ووقف هو كالطود .. يثبت قلوب من حوله بما يضرب أمامهم من أمثلة البطولة والشجاعة وبذل النفس .. وابلى أمام عيونهم بلاء حسنا ورأوه كذلك .. فصدقوا القتال .. حتى أندحر جيش التتار .. واتخذ طرف الجبال مهارب له .. ولكن تبعهم جند الشام ومصر .. يقتلون منهم من يقع فى أيديهم ..

واتجه ابن تيمية بعد ذلك النصر .. الى الذين تملقوا التتار أثناء اغارتهم .. وهم ما تسميهم اليوم عملاء الاستعمار .. فشن عليهم حملات شعواء وأخذ يقول فيهم عند السلطان ويستحثه فى استصدار القوانين الملزمة بكفاحهم وقتالهم وقاد كتيبة من أصحابه لقتالهم .. وتخريب ديارهم .. حتى يرفرف الأمن على أهل البلاد ...

وعاد الى درسه يعظ الناس ويعلمهم ويرد على مخالفيه .. وقد صار له من قوة المكانة وعلو الشأن لعلمه الوفير .. واشتراك فى الجهاد ومقابلة الأعداء وجها لوجه .. معهم ومع عملائهم فاستخدم هذه الفرصة أحسن استخدام .. فاستعان بأصحابه وحطموا أوانى الخمر . وأراقوها فوق التراب وحاربوا البدع والمنكرات ..

وما أشد فرحة الناس بذلك .. فقد رأوا أحكام القرآن تنفذ أمام أعينهم بلا خوف ولا خشية .. وأحسوا بنور عهد الرسول يعود الى دنياهم .. بعد أن كاد يغشيه مرور الزمن .. وكثرة البدع ..

* * *

سارت الركبان .. ولا حديث لها الا هذا الرجل .. ونقاش المجامع لا يدور الا على أقواله وأفعاله وفتاويه .. واندلعت فى بعض القلوب شرارة الحسد وحقد عليه بعض العلماء .. حين رأوه يستشار فى تولية المناصب واختيار من يصلح لها وحين رأوه مستأثرا بحب الناس له دون غيره منهم وانفراده بالمنزلة عندهم يسكنون بسكونه ويهتدون بهديه ويخضعون لرأيه ودعوته ..

فأوغروا عليه صدور الحكام .. ورموه بالشكاوى المتتالية .. وأثاروا حوله التهم الباطلة .. وظلوا على ذلك دون كلل .. يتحاملون من قوله .. ويحصون عليه ألفاظه .. حتى أخذ الحكام يستمعون اليهم فاستدعى من الشام الى مصر .. وودعه أهل الشام بعيون باكية .. وقلوب محبة ..

وسار .. ومعه على الطريق أخواه زين الدين وشرف الدين .. حتى وصل مصر .. معتمدا على الله .. معتزما أن يجعل من استدعائه خيرا كبيرا ولكن الوالى كان قد استدعاه لمحاكمته

وانقسم الناس فى شأنه اقساما •• منهم من أعجب به وقدر علمه وتبرك به ومنهم من صغر شأنه وحاول الحط من قدره حتى رماه بالزندقة •• ومنهم من وقف بين الفريقين •• واعتدل فى موقفـــه ••

واحتدم الجدل حوله •• واستمر النضال بين محبيه وكارهيه •• ولكنه أخذ يهدأ شيئا فشيئا وأخذ يكثر أنصار الرجل ويقل معارضوه •• وزالت تلك الخصومات من كثير •• وتوارث الناس علومه •• ورأوا فيــه فقيهـا حر الفكر •• مســتقل الادراك •• وباحثا •• كرس جهده فى احياء السنة •• ونصرة الدين •• والدفاع عنه •••

وظل الى يومنا هذا • علما من أعلام الدين الحنيف الصحيح الباقى على الأجيال •• والخالد خلود الزمن ••

* * *

عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْكَوَاكِبِى

حـــر فى غير موطنـــه :

كانتَ بلاد العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر تعانى من التأخر الشىء الكثير فى نواحى الحياة المختلفة ••• ران عليها ستار كثيف من ظلام الجهل وظلم النفس وجمود القلب عن التطور ••• لو نظرنا فى صورتهـــا فى ذلك الوقت لم نجـــد فيها شيئا غير الظلمة الحالكة تتخللها دموع وآهات وأنات ••• تنفجر من عيون وقلوب المستضعفين المستذلين ••

ولقد كتب الدكتور أحمد أمين عن تلك الحال البائسة فقال فى تصويرها « ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقر مدقع •• لقـــد أغلقت على العـــالم الاســـلامى الأبواب منذ الحروب الصليبية وأخذ يأكل بعضه بعضا ••• وقف المسلمون فى علمهم فليس الا تـــرديد الكتب الفقهيـــة والنحوية والصرفية ونحوها وفى صناعتهم فلا ابداع ولا اتقان للقديم •• وفى آلاتهم وفنـــونهم العســـكرية فهى على نمط الاقدمين ••• والولايات من مصر الى الشام والعراق والحجاز متدهورة متضعضعة قد اماتها توالى الاستعباد عليهـــا •• والسياسة فيها نزاع مستمر بين الامراء ••• وكل أمير لـــه حزبه وكل حزب يتربص الـــدائرة بخصمه والبـــلاد ضـــائعة بينهم •• والوالى لا يطيل المكث الا ريثما يغتنى حتى أصبح

اسم الحكومة والوالي والجندي مرعبا مفزعا مقرونا فى النفس بمعنى الظلم والعسف » ..

وفى حياة الشعوب والأمم .. مهما ادلهمت الظلمة .. وثقل العسف واختنق الناس باستبداد الحاكمين وطغمتهم الظالمة المستقلة .. لا تنسى الطبيعة ان تبذر البذرة تلو البذرة .. فتنمو هنا واحدة وهناك واحدة .... تحس بما يعانيه القوم من حولها وتجد لزاما عليها ان تقف بجانبهم ضد تيار القهر والظلم مهما كان جارفا .. فهذه البذور جبلت على القلب الكبير والنفس الشجاعة والوعى الصحيح بالانسانية الكريمة ... وتظل هذه البذور تقاوم الريح وتبعث بضوئها وسط تياراته القاتلة .. ولا تأخذها فى ذلك رعدة ولا يثنيها عن عزمها نفور الحكام وصولة الظلم وجبروت المستبدين ... وتبقى على الطريق مستعذبة كل ما يصب عليها من محاولات الاطفاء ومناورات العذاب ... وكلها أمل فى أنها سوف تكون علامة على الطريق .... فى التقدم المنشود ...

وكلما زاد الجور والعسف .. كلما زاد اصرار الطبيعة على القاء البذور حتى لا تموت بين الناس الحياة الكريمة ولا ينزوى العدل فى حلكة الظلام ...

* * *

وكذلك كانت الظروف المحيطة ببلاد العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر ... زاد فيها ضغط الاستبداد على رقاب الناس ونفوسهم ... فنبتت بذور تحمل للناس طريق الخلاص هنا وهناك فى أرجاء البلاد الاسلامية ....

من هذه البذور عبد الرحمن الكواكبى .. الذى ولد فى حلب « بسوريا » على أشهر ما ذكر وكما قال ابنه الدكتور اسعد الكواكبى فى ٢٣ من شوال — ١٢٧١ هـ (١٨٥٤) والذى لا يستطيع كاتب ان يكتب عن الاصلاح الحديث والحرية الفكرية وحركات التجديد فى الاسلام فى أخريات القرن الماضى وأوائل القرن الحالى دون أن يضع « عبد الرحمن الكواكبى) فى رأس قائمة المصلحين فهو امتداد لجهود جمال الدين الافغانى التى ظهرت فى تلاميذه المنبثين فى كل قطر عربى اسلامى .

وكانت أسرته ذات علم وتقوى .. أمسكت أجيالها بحبل العلم والدين فكان أبوه مدرسا فى الجامع الأموى « بحلب » وبالمدرسة الكواكبية فيها وقال عنه المؤرخون » انه رقيق الحاشية ظريف المحاضرة لا يمل منه جليسه حسن الخلق جدا يعرف اللغة التركية اذ كان يندر من يعرفها بحلب وخاصة من العلماء وكن وقفا على الاصلاح بين الناس » ...

كما كانت فى أسرة الكواكبى نقابة الاشراف فى حلب فأوحت له هذه المكانة الجليلة للاسرة بكل معانى العزة والكرامة والعلم

والحصانة • وشاءت الأقدار ان تزرع فى قلبه التجلد واحتمال المآسى والعذاب فماتت أمه وهو فى السادسة من عمره •• فأرسله أبوه الى خالته فى انطاكية • فتولت تربيته وأولتـه عناية فائقـة وكانت من نوادر النسـاء فى الشرق عـرفت بالأدب والكياسة وسعة العقل •••••• وأخذ يتردد بين حلب وانطاكية •• ينال من هذه ومن تلك ما ينير عقله ويثقفه ويزيد مداركه وعلمه •• وتعلم العربية والتركية والفارسية مما أعانه على قراءة الصحف التركية التى كانت وقت ذاك تزخـر بترجمات كثيرة من اللغـات الأوربيـة فاكتسب معلومـات كثيرة وثقافات جديدة واطلع على آراء كثيرة من مفكرى الغرب الذين كتبـوا عن الثورة الفرنسية ومبادئهـا وعن الحـركات التحريرية الاخرى مثل ماكان فى ايطاليا •• واكتسب أيضـا عينا فاحصة وقلبا واعيا يرى بهما صورة العصر •• فـرأى فيها انكسار العالم الاسـلامى بعد ازدهـار •• وانقسـام المسلمين فيه شيعا وأحزابا بعد قوة واتحـاد ••• ومذاهب فرقتهم سبلا شتى وأسلمتهم للتنـاحـر الهـدام المقيت حتى أصبحت تحكمهم دولة اسلامية هى تركيـا بالجـور والعسف والطغيان تستنزف دمـاءهم وتأكل أرزاقهم وتكبل ألسنتهم وتحجـر على أفكارهم ••• وعنـوان حكمها : الاستبداد : ولا بغير الاستبداد تسوس المسلمين فى البلاد الاسـلامية فى حكمها ••• لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا ولا يستطيعون ان يرفعوا صـوتا يطلب عدلا أو انصافا •• حتى ان خطيب المسجد فى صلاة الجمعة يتحرى الآيات القرآنية والآحـاديث النبوية التى يريد ان يدبـج منها خطبته ويستشهد بها على ما يقول •• يتحراها فلا تكون مما ينهى عـن ظلم أو يدعو

الى صحوة القـوم أمام الظالمين أو تشير الى حق الرعية على الراعى ••

ولما كانت أسرة الكواكبى تتمتع بنقابة الأشراف فى سوريا فانها بذلك كانت محط أنظار القوم يتجه اليها الناس عندما يريدون عونا أو وسـاطة لدى الحاكم والأسرة فى ذلك لاتنى عن مناصرتهم • والوقوف بجانبهم وتصديهـا للظلم يرفعونه عمن يلجأ اليهم ويسعفون منه من يستغيث بهم ••• فنفرت السلطات الحميدية من ذلك وتخوفت من مبادىء هذه الأسرة واعتزازهـا بكرامتها وارادت ان تمنع الاسرة الـكواكبية من هذا المركز الذى بحكمه يلتف النـاس حولها فنقلت منها نقابة الاشراف الى أسرة أخرى أقل تمسـكا بما يضر وأكثر مهادنة واستجابة للحكم الذى أساسه الاستبداد ومعـاونة المستبدين واجبار الناس على الرضا بالظلم والخضوع له ••

* * *

التقى كل ذلك فى قلب الفتى عبد الرحمن الكواكبى •• ثقافة غربية •• رأى فيها أسباب تقدم بلاد الغرب وتفوقها على بلاد المسلمين ، ومناظر استبداد شـديد الوطأة على النفوس •• حركت عنده نوازع الحرية والثورة على الفساد والوقوف فى وجه الطغيان دفاعا عن الأسارى والمظلومين ••• وعلما دينيا

عرف عن طريقه مسئولية الراعى تجاه الرعية وحقوق الرعية عنده وواجبها نحوه ونحو أمتهم ..

التقى كل ذلك فى مناط استيعابه فسعت نفسه الى الاصلاح ووجد من الاسباب ما جعله يتهيأ لذلك ورسم طريق الحياة الذى آثر أن يسلكها للنضال .... لكشف القناع عن الظلم وتنبيه القوم الى أسباب التقدم ولم يترك بابا من أبواب المعرفة يزيد به استعانة على مقصده .. واطلع اطلاعا حسنا على مسائل الدين وحاز دراية واسعة بتواريخ الأمم الاسلامية وقصص حياة الزعماء العاملين على استقلال شعوبهم وتوحيدها ...

* * *

ولم يكد عبد الرحمن الكواكبى يبلغ من عمره الثانية والعشرين حتى كان قد أنهى دراسته فى المدرسة الكواكبية التى تنسب الى أسرته واشتغل بالصحافة وساعدته معرفته باللغتين التركية والفارسية فى ان يكون محررا بجريدة « فرات » التى كانت تصدر فى حلب باللغة العربية والتركية ثم نازعه الاستقلال فى الرأى بالاضافة الى رغبته الصادقة والمخلصة فى أن يكون فى حلب جريدة عربية خالصة فأنشأ جريدة أسماها « الشهباء » فكانت أول جريدة تصدر فى حلب باللغة العربية وحدها وكتب فيها ما أراد .. وأظهر للناس كل ما يعتمل فى قلبه ... وصب فى كلماته لهيب أرائه المبكرة التى تناصر

الحق ولا تخشى فيه اللائمة ولا تجامل على حسابه حاكما ولا سيدا فانتشرت هذه الصحيفة بين الناس بسرعة فائقة لجرأة رأيها ولصدق قولها وعروبة ثوبها ولبلاغة تعبيرها وابلاغها المعنى من أوجز طريق وتهافت عليها الناس فقد كانت بالنسبة لهم شيئا جديدا وجدوه خير معبر عن صرخاتهم التى حرمهم الطغيان من التعبير عنها وسد عليهم الاستبداد مسالك القول فيها واسترعت — لسهولة أسلوبها ... الذى خلصه الكواكبى من المحسنات اللفظية والجمل المسجوعة والتشابيه الجوفاء المحلقة فى الخيال وزخرف الكلمات — أنظار الجميع أغنياء وفقراء ، خاصة وعامة ... حتى صارت الحديث على كل لسان وفى كل لقاء .. مما نبه الحكام وأقلق بالهم .. فهم لا يريدون هذا الصنف ... لا من الناس ولا من القول .. فصودرت جريدة الشهباء الحرة الثائرة بعد ان صدر منها خمسة عشر عددا لا غير ...

ثم عاد فى سنة ١٨٧٩ ميلادية فانشأ جريدة سماها الاعتدال ونحا فيها نحو المماثلة لجريدة فرات فى ان أصدرها باللغتين العربية والتركية .. أما روحه الاصلاحية التى كانت منبعا صافيا لكتاباته فقد عجلت بمصيرها مثل « الشهباء » حيث كتب فيها ما كان يخشاه الحكام والولاة العثمانيون ويريدون ان لا يعرفه الناس .. كتب فيها عن الحرية والمساواة وعن الاستبداد وواجب القوم فى السعى للخلاص منه .. وعن سبيل المسلمين الى الاصلاح والتحرر من نير الاستعباد التركى الذى ظل فوق أعناقهم ثلاثة قرون ..

وما أصدق الاستاذ مارون عبود فى تلخيصه سيرة الكواكبى بقوله « هذا هو الكواكبى أحد الرواد المناضلين فى العهد الحميدى ولعله أمرهم لسانا وأعنفهم هجوما وربما كان موقد نار اليقظة العربية فبينما كان حزب « تركيا الفتاة » يدعو الى تجديد دم الحكم التركى كان الكواكبى يهتف فلنلق عنانيرهم .

* * *

أخذ عبد الرحمن الكواكبى ينتقل فى الأعمال والوظائف فتارة يكتب وتارة يتاجر وتارة يلتحق باحدى الوظائف الرسمية ويرى فى كل ذلك ظل استبداد الحكومة بالشعب وتسخيرها له ويصطدم بنظام الدولة الجاف الذى لا يساير التطور ويرى تفشى الامراض الاجتماعية بين الناس واستكانتهم للظلم الواقع عليهم والظلام الذى يخيم على عقولهم فلا يدعهم يميزون بين الصالح والطالح حتى العلماء لا يقومون بواجبهم المشروع فى ذلك السبيل ولا يبصرون الناس بما يصلح أمرهم بل يزيدون عنهم خنوعا ومذلة وهم يعلمون ... حتى غدوا أساس ادواء هؤلاء الناس فهم الذين يغمضون عيونهم لقاء اجر او منصب أو لقب ويطلقون على السلطان ألقاب المولى والمقدس واهب العظمة والجلال وسلطان السلاطين الى غير ذلك ..

وكانت الفترة التى قضاها الكواكبى فى الصحافة العربية بحلب قد وسعت مجال آماله وتطلعاته الى مخاطبة العرب

والمسلمين على مقياس أعم وأوسع فأخذ ينصح ويكتب ويتكلم ويندد بالظلم ويقاوم استبداد الرأى واستبداد الحاكم وأساس دعوته لكل ذلك الأخذ بأساليب الحياة الجديدةووسائل تطويرها بالاضافة الى كونه من رجال الدعوة الى التحرر والاصلاح..وبعث الشعور القومى بين العرب فانه كان فى الوقت نفسه داعية قويا من دعاة العلم والمعرفة واللذين بهما يتحقق التخلص من نير الاستبداد « والحق ان الكواكبى كان من الاوائل الذين تنبهوا الى خطر اقتصاد المسلمين على العلوم الدينية واهمالهم العلوم الدنيوية كالرياضة والطبيعة والكيمياء التى اشتغل بها المسلمون زمنا فى عهود الازدهار ثم انشغلوا عنها فاندرست كتبها وانقطعت علاقتها وصار منفورا منها بل صار المتطلع اليها والمشتغل بها يرمى بالزيغ وينتهم بالزندقة على حين أخذت هذه العلوم تنمو فى الغرب وظهر لها فيه اعظم الثمرات وصارت فى مرتبة الشمس لا حياة لذى حياة الا بنورها وأفادوا منها فائدة كبيرة من تربية الطفل الى سياسة الممالك ومن استنبات الأرض الى استمطار السماء ومن عمل الابرة الى عمل المدافع والبوارج .

* * *

تألب عليه من جراء كل ذلك والى حلب وفرض عليه رقابة شديدة وأحاطه بعيون راصدة ترصد كل حركاته وأقواله وأفعاله مع الأخذ بوسائل الاسترضاء ، والاستمالة وأعد للكواكبى وظيفة حكومية فأبت نفسه النزاعة الى الحرية منذ

وجدت ••• ابت الاستكانة لهذه الرقابة الغير مباشرة وهذا القيد الحريرى فقدم استقالته وفتح مكتبا للمحاماة يحرر التظلمات من الحكام ويقدم الفتاوى والنصح لأصحاب الدعاوى •

« وجاء هذا المكتب ضغثا على ابالة وزاد فى ازعاج الوالى لانه أصبح ندوة يأوى اليها المتظلمون وبدا لهم الكواكبى على الطريق الذى يتوصلون بها الى قهر الوالى والتخلص من ظلمه ويشجعهم على رفع ظلاماتهم ويتولى بنفسه تحرير الكتب والشكاوى المرسلة مع البريد والبرق » •

فما كان الا ان تأججت كراهية الوالى للكواكبى أكثر من ذى قبل وزادت اتهاماته له حتى اتهمه بمحاولة اغتياله فألقى القبض عليه وأودعه السجن الى ان قامت فى حلب ثورة شعبية أسقطت الوالى وتولى الحكم والى جديد فأطلق سراح الكواكبى وأسند اليه الوظائف الحكومية مرة أخرى وقام فيها باصلاحات كانت محل التقدير والقدوة الحسنة غير أنها لم تشغله عن التفكير لحظة فيما كان يهم العرب والمسلمين عامة من أمور وقضايا اصلاحية •

* * *

ولم تتوان حكومة السلطان عبد الحميد أيضا عن متابعته فى كل مكان ورصد كل حركة وبث العيون من حوله ترقب حركاته وسكناته ••• بل ونومه ويقظته وتعد أنفاسه قدر ما يمكن •• بل واشتدت فى ضغطها عليه واستبدادها به وتدبير المكائد له •• الى ان أوعزوا الى جماعة من الأرمن ان يغتصبوا أرضا له وزراعة كان يمتلكها •

ورغم أن ذلك كله لم يؤثر شيئا فى همته العالية أو يوهن عزمه الثابت على حرب الاستبداد والظلم فى شتى صوره وفى كل مكان •• الا أنه لم يرض القيد وهو حر النفس أبى الضمير •• » ولم يطق الاقامة فى ذلك الجو البغيض الذى يقوم على الدسائس والظلم فقرر الهجرة الى مصر موطن الاحرار •• »

ويقول فى مقدمة كتابه طبائع الاستبداد « اننى فى سنة ثمانى عشر وثلاثمائة وألف هجرية هجرت ديارى سرحا فى الشرق فزرت مصر واتخذتها لى وكرا أرجع اليه مغتنما الحرية فيها •• »

* * *

ان مصر دائما هى بلد الحرية ••• وهى موطن الأحرار ••• وهى سند الأمة العربية فى كل ما يلم بها ••• وهى مبعث كل حركات النهضة والتحرر•••هى الطليعة وهى السند••هى

الموئل والنور •• كل ذلك آمن به رجال النهضة الفكرية ••• وزعماء الفكر السياسى الحر ••• من أمثال جمال الدين الأفغانى ••• ثم واصل الرؤية عبد الرحمن الكواكبى •• بمجيئه الى مصر •••• فرارا من الارهاب ••• الى أرض الأمن والرخاء •• كما يعبر هو بصدق مشاعره •• « مغتنما عهد الحرية فيها •• »

وجاءت اقامته فى مصر •• انطلاقا لنفسه الحرة وقلمه الأبى المناضل ••• وجدها منطلقا يتنفس فيه عبير الحرية الغالبة التى امتنعت عليه بل وفقدها فى وطنه حلب •• ثم وصل قلمه فى مصر •• منذ أول وصوله اليها — بصحيفة المؤيد أخذ ينشر فيها مقالات متتالية هى عبارة عن فصول من كتابه الرائع الخالد « طبائع الاستبداد •• وبه ظهر الكواكبى لقراء العرب لصحف مصر المتقدمة فكرا وطباعة وتبويبا عن غيرها فى البلاد العربية •• ظهر الكواكبى لهؤلاء بشكله الطبيعى كاتبا ومصلحا اسلاميا واجتماعيا له رأى نافذ وحس صادق ورغبة مخلصة وتناول الناس كتاباته : يجلس الذى يعرف القراءة ليلقيها على من لا يعرف ••• ثم أخرج كتابه الثانى « أم القرى » ••

وان كان كل من الكتابين ذا أهمية بالغة فى تناول طبائع الاستبداد وشئون اصلاح المسلمين الا ان كتاب طبائع

الاستبداد ذو أهمية خاصة حيث كان الطغيان والاستبداد هما الطابع المميز لمعاملة الحكام للمحكومين •• بالقهر والتعذيب والارهاب والضغط والاستخبارات والعدوان فى كل صوره ••• كما لو لم يكن فى حياة الحاكم ما يفعله للمحكومين غير تلك الاصناف من المعاملات السيئة وكأنما أرسله الله لتنفيذها فقط •• لذلك كانت الأهمية البالغة لكتابه « طبائع الاستبداد » الذى يدور حول انحطاط الشرق عموما والمسلمين خاصة أراد فيه ان يبين للناس طبائع الاستبداد وما يفعله بهم ويشخص لهم الاستعباد حتى يتنبه منهم الغافلون الى مورد الداء الدفين ويستدركون شأنهم ويصلحون أمورهم • حبذا لو نطالع معا فى كتابه المذكور •••

من فصل « الاستبداد والترقى » ••• يحرك قومه ويستنفر أهله •• ويبعث فيهم الروح ويناجيهم بحبه لهم • وينذرهم عاقبة الخنوع للاستبداد والمستبدين — وينصحهم أغلى وأخلص ما تكون النصيحة •••

« يا قوم •• وقاكم الله من الشر ••• ·

أنتم بعيدون عن مفاخر الابداع ، وشرف القدوة — مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل وبداء الحرص على كل عتيق ، كأنكم خلقتم للماضى لا للحاضر : تشكون حاضركم وتسخطون عليه ••• ومن لى ان تدركوا ان حاضركم نتيجة ما ضيكم ؟ ومع ذلك أراكم تقلدون أجدادكم فى الوساوس

والخرافات والأمور السافلات فقط ولا تقلدونهم فى محامدهم ••••

أين الدين ••• ؟ أين التربية ؟

أين الاحساس •• ؟ أين الغيرة •• ؟

أين الثبات •• ؟ أين الرابطة •• ؟

أين الجسارة ••• ؟ أين المنعة •• ؟

أين الشهامة ؟ أين النخوة •• ؟

أين الفضيلة •• ؟ أين المساواة •• ؟

— هل تسمعون •• ؟ أم أنتم صم لا هون ••• ؟

يا قوم ••• عافاكم الله ••• الى متى هذا اليوم ••• والى متى هذا التقلب على فراش اليأس ووسادة اليأس ؟ أنتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام •• لكم أبصار ولكنكم لا تنظرون ••• وهكذا ••••

— « انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » •

لكم سمع ولسان •• ولكنكم صم بكم •••

ولكم شبيه الحس ولكنكم لا تشعرون به ما هى اللذائذ حقا وما هى الآلام ••

ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الاوهام والاحلام ولكم نفوس حقها ان تكون عزيزة •• ولكن أنتم لا تفرقون لها قدرا ومقاما •••

يا قوم ••• حماكم الله ••• قد جاءكم المستمتعون من كل حدب ينسلون •• فان وجدوكم ايقاظا عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتحامل الأقران ••••• وان وجدوكم رقودا لا تشعرون سلبوا أموالكم وزاحوكم عن أرضكم واتخذوكم أنعاما • وعندئذ لو أردتم حراكا لا تقوون •• بل تجدون القيود مشدودة •• والأبواب مسدودة لا نجاة ولا مخرج••

* * *

يا قوم •• هون الله صعبكم ••• تشكون من الجهل •• ولا تنفقون على التعليم نصف ما تصرفون على التدخين ؟ تشكون من الحكام وهم اليوم منكم فلا تسعون فى اصلاحهم •• تشكون فقد الرابطة ولكم روابط من وجوه لا تفكرون فى أحكامها••تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل••هل ترجون الصلاح وأنتم يخادع بعضكم بعضا ؟ ولا تخدعون الا أنفسكم ترضون بأدنى المعيشة عجزا تسمونه قناعة وتهملون شئونكم•• تهاونا تسمونه توكلا وتموهون عن جهلكم الاسباب لقضاء

الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر •• الا والله ما هذا شأن البشر •

يا قوم •• سامحكم الله •• لا تظلموا الأقدار ••• وخافوا غيرة المنتقم الجبار •• الم يخلقكم احرارا طلقاء لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم الا ان تجلوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء لو شاء كبيركم ان يحمل صغيركم كرة الأرض لحنى له ظهره •• ولو شاء ان يركبه لطأطأ له رأسه •• ماذا استفدتم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله •• وما ترجون من تقبيل الأذيال والأعتاب وخفض الصوت ونكس الرأس •• اليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم بأنفسكم كأنكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة وحسب الحياة لقيمات من نبات يقمن ضلع ابن آدم وقد بذلها الخلاق لأضعف الحيوان •• هذه الوحوش تجد فرائسها أينما حلت وهذه الهوام لا تفقد قوتها •••

فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذى لا ينال من الكبير مراده الا بالتذلل والبكاء •• أو موضع الشيخ الفانى الذى لا ينال حاجته الا •• بالتملق والدعاء ••

* * *

أما كتابه الثانى الذى هو أم القرى فهو عبارة عن وصف لمؤتمر — قيل — ان الكواكبى تخيله مجتمعا فى مكة المكرمة ••

وحضره مندوبون يمثلون بلادا عربية واسلامية مختلفة لتدارس أحوال المسلمين ومناقشة اصلاح أمورهم ••• وصور الاجتماعات والمناقشات تصويرا دقيقا وصل فيه الى جذور العلل التى منى بها المسلمون والعرب فأخذهم عن مكان الصدارة كما كانوا قبل ذلك العصر الاستبدادى الرهيب •• ارجع كل ذلك الى اختلاف المسلمين وانقسامهم وتوزعهم الى فرق وشيع ••• وتركهم السعى والعمل واستسلامهم الى الأوهام والخرافات ، وابتعادهم عن روح الشريعة الاسلامية وعدم مطابقتهم بين أقوالهم وأعمالهم وخاصة فى الدين وتوسعهم فى تأويل النصوص •• وحرمان الحكام للمحكومين من حرية القول وتضييعهم العدل والمساواة بين فئات الناس واقصائهم الناجحين لهم وتغريبهم للمنافقين والمتملقين ••

أجمل تلك الاسباب وعرضها فى كتابه ام القرى فى قالب جذاب يستهوى النفوس بأسلوبه الجديد السهل الممتع •• وأشار فى مقدمته الى كتاب ثالث له أسماه «صحائف قريش» • ولكن القدر أعجله عن اصدار بالوفاة ••

واقد اسهم هذان الكتابان بقدر وافر فى تطوير الحركة العربية وازدياد النضال من أجل الحرية ومعاداة الظلم والطغيان والاستبداد : كما فيهما من دعوة مخلصة للعرب وللمسلمين فى شتى انحاء الارض ••• أن يبذلوا كل ماف وسعهم

وان يضحوا بكل غال ورخيص فى سبيل الرقى والنهوض من كبوتهم ••• ولما نبه فيهما من دعوة العرب والمسلمين بان يتمسكوا بالدين وبالعلم الحديث •• بالروح وبالعلوم الطبيعية •• وأن لا يدعوا فى الفكر هوادة بين الحياتين حياة الدين وحياة الدنيا ••• كما يقول فى كتابه حتى يتنبه الغافلون من العرب والمسلمين الى الداء الدفين ويعلمون أنهم هم المتسببون لما حاق بهم فلا يلوموا أقدارهم ولا يعتبوا على غيرهم انما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل وبهذا يستدركون شأنهم ويصلحون أمورهم قبل ان يمضى الاوان ويفوت الزمان •• »

* * *

وظل الكواكبى فى نضاله الفكرى الذى تزايد بدرجة ملحوظة منذ وصوله الى مصر •• وكأنما يغتنم الزمن ليقول كل ما عنده •• وكأنما يعوض مافاته من سنين العمر مقهورا مستبدا به • معدودا عليه كل شىء •• معتدى عليه دائما من جانب السلطة••

لذلك كان انتاجه فيها غزيرا •• ولقاءاته برجال الفكر والتحرر كثيرة وظل بين كل ذلك نبراسا يلتف حوله الاحرار الى ان وافاه الأجل وهو لما يكمل الخمسين عاما بعد •• وتناولت حكايات كثيرة كيف توفى •• لكن أصدق ما فى الامر أنه مات ودفن فى القاهرة بمقابر باب الوزير ولا يزال ضريحه هناك يحمل على شاهده الرخامى بيتين من الشعر قالهما شاعر النيل حافظ ابراهيم •

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى

هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا

عليه فهذا أقبر قبر الكواكبى